

مدفن الأحياء

مدفن الأحياء
وليد الهودلي
الطبعة الأولى ٢٠٠١
(كل الحقوق محفوظة)



دار الزاهرة للنشر والتوزيع (بيت الشعر)
رام الله - فلسطين
ص.ب: ٩٥٢
هاتف: 2406956 - فاكس 2406955
E-mail: <pal-poetry@jrol.com>

التنفيذ والإشراف:
المركز الثقافي الفلسطيني (بيت الشعر)



الإشراف الفني: محمد حلمي الريشة
الصف والمونتاج: ريماء منى
لوحة الغلاف: للفنان اسماعيل شموط
الغلاف: نغم الحلواني

وليد الهودلي

مدفن الأحياء

شهادات من المعتقل

مرضى على وشك الرحيل

أجساد وأرواح تعصر الماء في مستشفى الرمل - فلسطين

مقدمة

تلاشت آهات يوسف العرعيد المكبوتة ... لم تجد طريقها إلى
نخوة المعتصم ولا إلى نخوة أبي جهل .. انضم إلى الركب ورحل
بصمت .. شهداء قُتلوا بدم بارد على أسرة المرض في سجون
الاحتلال ... عبد القادر أبو الفحم، عمر القاسم، يحيى الناطور،
حسين عبيدات، معزوز دلال، رياض عدوان، والركب طويل ... وإذا
كان هناك من ينتظر الانضمام وينطوي على لهيب معاناته، فلا أقلّ من
أنّ نقصّ عليكم قبساً يسيراً من هذه المعاناة ... صحيح أنّ صفحات
الجرائد كثيراً ما شهدت ذكرهم، ولكن الجديد الآن هو ندخل إلى
عالمهم، ونشاركهم خلجات قلوبهم، ونتفياً ظلال أرواحهم ... لن
نثقل عليكم، سنعودهم بصحبتكم، ففي عيادة المريض أجر ومن السّنة
أنّ تكون عيادة المريض قصيرة

وليد الهودي

١٩٩٩/٥/٢٧

أبو الحسن أبو هدوان: "الشيخ المحتسب"

أخيراً، وبعد مسيرة طويلة ومُضنية، وصلت إلى مستشفى الرملة .. قطعتُ هذه المسيرة في ثمانية شهور .. المسافة بين عسقلان والرملة ستون كيلومتراً، ولكنها تحتاج إلى هذا الزحف السلحفائي المميت .. تحتاج إلى مراجعات عديدة لطبيب السجن، وبعد صراعٍ طويل، هادئٍ ودبلوماسيٍ وصاحبٍ وضغط .. يُكتب التحويل لإجراء الفحص اللازم، فهذا الطبيب لا يستجيب قلمه إلا للمريض اللّحوح الذي يضغط عليه مرضه، ويوعزه إلى هذا النضال الطويل .. يضع الطبيب ورقة التحويل في أدراجه الباردة كي تدخل مرحلة حجز الدّور، لا أريد أن أطيل عليكم وأتّيهُ بكم في التفاصيل المملّة، فأنا مرضي بسيط، والفحص المُزمع على تشييد صرحه سهل .. فما يعمل في العالم الخارجي في يوم واحد، يحتاج إلى هذه المراحل العسيرة، وهذا الوقت المديد أطال الله في عمره .. المهم ما رأيته في المستشفى مع أصحاب الأمراض الصعبة .. الأرواح التي تنتظر ملك الموت بفارغ

الصبر، وتشعر أنه على وشك الأخذ بيدها والرحيل من وسط هذه
الأدغال التي تناوشته فيها وحوشها ...

كان أول ولوجي المستشفى الصغير مع "أبو حسن" محمد أبو
هدوان.. نزلت في غرفته، أخذني بالأحضان وعيناه تلمع خلف
دموعها .. وقفت صورته منذ أول معرفته به شاخصة خلف شبحه
اليوم .. كانت الصورة الأولى لشخص آخر .. رجل ممتلئ الجسم ..
رحب مشرق يفيض حيوية وقوة .. لعينه نور مميز .. يفرض الهيبة
والجلال .. تخرق حواجز الأجساد وتعمل في القلوب عملها .. صوت
جهوري له رنة موسيقية عالية تهتز لها المشاعر .. تجد فيه للوهلة الأولى
النخوة والأصالة، الإباء وعزة النفس .. وكل هذا لم يمنعه من أن
يرطب القلوب بما لذ وطاب من النكات والتعليقات التي تسر
الحاضرين .. أما صورة اليوم فقد ذوت في شحوبها .. هدها المرض
ولم يترك سوى آثار باهتة لا يجد بصيصها إلا أصحاب القلوب المرهفة
.. أنفاس تتلاحق بسرعة .. قلب يرتجف، ترتجف معه الكلمات ..
تخرج ضعيفة رغم ما فيها من رحمة وحنان .. ذرت الرياح شعر الرأس
واشتعل شعر اللحية شيئاً .. غابت حيويته وسكنت حركته .. أصبح
كالرسم الذي يعاد بالتصوير البطيء ..
جلست على حافة سريره .. وجهت له علامات استفهامي ..

- كيف الحال "أبو الحسن"؟ ..
- حالي كما ترى .. الحمد لله على كل حال ..
- تذكر أيامنا "أبو الحسن" سنة ٩٢ .. في عسقلان؟
- الله يرحم تلك الأيام .. أيام كانت الأمراض بعيدة عني ..
- كان في سريره وكأن صخرة كبيرة تربض على صدره ..
- يتفّلت من ثقلها .. يجد راحة في الحديث عن آلامه خاصة مع أصحابه
- القدامى .. القابعين معه في هذا المستشفى المعزول .. ملّوا الحديث
- لبعضهم البعض عن أوجاعهم .. ما أن يحل بهم ضيف إلا ويبتثون شيئاً
- مما يعتمل في صدورهم .. تعمّدت إدارة السجن وضع هذا المستشفى
- في ظروف قاسية .. فتضيف آلاماً جديدة إلى آلامهم .. آلية العمل
- تصعّد الأوضاع النفسية الصعبة للأسير .. فإذا كان الطب الحديث
- تنسجم فيه الأبعاد النفسية مع العضوية فإن هؤلاء يكرّسون الانفصام
- التام .. ضغط نفسي مع علاج عضوي .. مركّب صعب تعضُّ عليه
- إدارة السجن بالنواخذ .. كيف يعقل مثلاً أن تجري عملية قلب
- مفتوح لمسّن جاوز الستين وأرجله مقيّدة بالسريّر إضافة إلى الحراسة
- المسلّحة .. أي طب مجنون هذا؟! قال لي أبو حسن منفعلاً عندما سألته
- عن العناية الطبية ..

- خذ هذه القصة التي حدثت معي .. أخرج دفترًا، قلب أوراقه بسرعة .. سأعطيك التاريخ بالضبط .. في ١٤/٤/٩٨ تعرّضت لنوبة قلبية حادة .. حولوني إلى مستشفى برزلاي / عسقلان .. كان معي أربعة حراس بأسلحتهم الرشاشة .. أفقت من إغمائي .. نظرت إلى الساعة فإذا بموعد صلاة المغرب يقترب .. تذكرتُ أني لم أُصلّ العصر .. طلبت منهم فكّ قيدي حتى أتوضأ وأصلي .. رفضوا بشدة .. أخذوني إلى دورة المياه وأنا مقيّد اليدين والرجلين .. قلت لهم بلغتهم: - كيف أتمكن من الاستنجاء؟! كيف أقضي حاجتي؟! ردّوا بكلمتهم اللئيمة التي لا يعرفون غيرها .. ممنوع . تيمّمت وأردت الصلاة واقفاً فرفضوا .. لم أتمكن من الصلاة إلا وأنا مستلقٍ على ظهري .. مربوط بسريري من اليدين والرجلين .. أتصدّق أنّ كل هذا خوفاً من أن أهرب؟! .. كيف سيهرب كهل في الستين من عمره ونوبة قلبية تُفَتّت شرايين صدره؟ .. كانت وخزات تدقّ نصالها في وسط صدري فتنتشر بسرعة إلى كافة ذرات جسمي .. كانت كصخرة صلبة تُلقَى في بركة ماء .. تتناثر شظايا الماء وتنتشر أمواج الألم حتى تصل إلى أطراف البركة . أنا لا أصدّق أنّ هذا اللؤم كي لا أتمكن من الهرب .. إنه ضغط نفسي مدروس ومنهج .. يطالعك حقدهم دوماً في كل لحظة ويقول لك: لا تنسَ أنك سجين وأنا سجانك هنا واقفٌ على

رأسك .. قلت لهم: أنتم أربعة أصحاء وما شاء الله عليكم .. اسحبوا أسلحتكم ورشاشاتكم واتركوني أصلي لله رب العالمين، ربي وربكم.. إذا تحركت غير حركات الصلاة فلا تتوانوا بإطلاق النار علي .. "ممنوع، قلنالك ممنوع" .. أنا لا أردى كيف سينفع الدواء مع السجّان؟ .. كيف يداوى الذئب الحمل؟ .. يقولون في الطبّ إنّ الراحة النفسية ضرورية للمريض .. أنا لا أطلب براحة نفسية لأنّ هذا يستحيل تحقيقه وروح الأسير تحسّ بوخزات الأسلاك الشائكة كلّما سافرت بأحلامها أو عادت من سفرها .. أنا أطلب فقط بوقف عملية التحطيم النفسي وتقديم العلاج المطلوب ..

وقفتُ معه وقفة طويلة مع العلاج والإهمال الطبي المقصود . كان يشدد على كلمة المقصود، تدفعها النصال التي غرست في رمال صحته المتحركة .. كان يُبديها كراهية سوداء يرفعها عالياً كي لا تغيب عنّا.. كنت أستعيد ذكريات ضحايا هذا الإهمال .. وحتى الكثير من الأسرى الأصحاء واجهوا هذه الحقيقة .. كان أحد الأطباء الأذكياء لسنوات طويلة يعالج بأحد أمرين .. "الأكمول" أو الماء .. علاج سحري لا يخطئ أبداً .. كانت طبيبة أسنان تنقضّ على فريستها كوحش كاسر .. لا تعرف إلا القلع والضرب على الأسنان بيد من حديد .. "يجي الناطور"، رحمة الله، غرق في آلامه عدة شهور من غير

أن يصلوا إلى التشخيص الدقيق للمرض، والأخطر من هذا أنهم قالوا بأن مرضه نفسي .. "إشرب ماء" .

وضع أبو حسين دواءه في كفه .. وعدّ لي ما يزيد عن العشرة أنواع:

- هذه مسكّنات، وهذه لتوسيع شرايين القلب، وهذا للتنفس .. منذ ثلاثة عشر شهراً وأنا أبلع من هذه السموم .. طلبت تقريراً طبياً فجاءني ليبشرني بابتلاءي .. وبعيداً عن التعقيد ألخصها لك .. القلب بحاجة إلى أفرهول .. تعرضت إلى جلطة سنة ٩٦، اتساع كبير في حجرة القلب اليسرى، إمالة حادة وتصلب في الشرايين .. منذ فترة طويلة وأنا أنتظر عملية القلب المفتوح فتح الله قُبورهم .

وعندي يا سيدي العزيز تليّف في الكبد .. وفشل كلوي جزئي وسكّري .. يكفيك هذا أم تريد المزيد .. الالتهاب الرئوي أعاذك الله منه .. لا أستطيع الاستغناء عن جهاز التنفس الكهربائي .. قل الله يعفيك يا "أبو حسن" .

قلت له بعد أن فاجأتني هذه الكوارث ..

- ولكن هكذا داهمتك كل هذه الأمراض دفعة واحدة .. ندّت عنه آهة عميقة وقال:

- لو كانت المتابعة الطبية جيدة أو مقبولة لما تدهورت صحتي بهذا الشكل .

أذكر أنني أصبت في سجن نفحة في العام ٨٩ بالتهاب كلوي حادّ، وعولجت بشكل أفضل من هذه الأيام .. ولكنهم فيما بعد أهملوا الأمر .

أثقلت على صدري هذه الكُربات .. انقبضتُ بمجرّد سماعها، فكيف بمن يعاني منها وتنفجر آلامها في جسمه ليل نهار؟! .. نظرت في دفتره .. وجدت به باباً للهروب قليلاً من قواقع ضربات الموت الذي رأيت يده وهي تلتفّ على عنق هذا الرجل .. تنتظر الأمر لوقف هذه الأنفاس الطاهرة .. (ولكلّ أجل كتاب) .. قلت له ..
- ماذا في هذا الدفتر؟ ..

ابتسم لي ابتسامة واسعة ملأت حنايا قلبي .. رأيت في عينيه أنه فهم ماذا أريد .. قال في نفسه .. "لا بأس هؤلاء الشباب تذهلهم أوضاعنا الصحية، ونحن وللحق أقول تنشرح صدورنا عندما نجد الأذن التي نفرغ فيها شيئاً من همومنا .. ولا بأس بذكر بعض الأجداد الغابرة" .. أسند ظهره وأخذ يقلب أوراق دفتره .. لحت بعض ما كتب فيه .. محمد حسن أبو هدوان .. الحكم مؤبد على خلفية عمليات عسكرية .. تاريخ الاعتقال سنة ٨٥ .. مضت أربعة عشر

عاماً .. لاحظ قراءتي فأخذ يقلبها ببطء .. خمس بنات وثلاثة أولاد ..
الأولاد تزوجوا والبنات إلا واحدة .. وضعت يدي على يده لأوقف
سيره السريع في عالم ذكرياته .. سألت:
- كلهم تزوجوا وأنت في السجن؟!
- نعم وأنا على "برشي" .. تصورت حفلاتهم في خيالي ..
- إلا واحدة .. أكيد هي آخر العنقود ..
- لا إنها ابنتي الكبيرة .. حرّمت على نفسها الزواج ما دمت في
الأسر ..

- ولكن هذا مخالف لسنة الحياة ..
- أصرت على هذا .. إنها متعلقة بي منذ صغرها .. حبها لي طغى
على كل شيء في حياتها .. تحبني حب يعقوب ليوسف .. حبسة
قطعت أوصال أعزّ الروابط .. أمي رحمها الله كان أُملي في هذه الحياة
أن أحظى بوداعها الأخير .. زارني في سنة ٩٣ زيارة خاصة ..
جثوت على أقدامها أقبلها وأبكي ..
أوقفته إلى موضوع آخر عندما رأيت الدموع في عينيه ..
- وماذا في الدفتر عن هذه الذكريات الأليمة؟ ..
- فيه كل شيء .. حتى النوادر البسيطة والقهقهات العابرة .. طيلة
الحبسة وأنا أكتب .. وعلى فكرة ليس هذا الدفتر الوحيد ..

- ما هذا؟! .. حبة أسكدنيا بعد أربعة عشر عاماً .. أكلت حبة تين
ورمانة بعد ثلاثة عشر عاماً .. كوز صبر .. ٢٥ رأساً حلقتها في
ثلاث ساعات ٩٣/٣/٢٥ رقم قياسي ..
- ما زلت أذكر حلقاتك يا "أبو حسن" .. وما زال شذى عطرك
يروى شعر رأسي .. أسأل الله أن يفك أسرك ويعيدك إلى أحفادك
حتى تخلق لهم ..
- صدقني أن كل أمني قبل كل شيء أن أصلي ركعتين في المسجد
الأقصى .. فكما ترى أنا في العقد السادس من عمري .. "أكرمني" الله
بكل هذه الأمراض .. أحمد الله وأشكره وأسأل الله القبول وأن يضعها
في ميزان حسناتي .. والأعمار بيد الله .
- وأولاد الأولاد .. وما أعز من الولد إلا ولد الولد .. يا "أبو
حسن".
- لا يوجد ما هو بعيد على الكريم .. يا سلام لو أتمكن من طباعة
قبلة على جبين أبنائي وبناتي .. الله كريم .. أتصور نفسي وقد رفعتني
أولادي على بساط أحد بيوتهم، وجمعوا لي كافة أحفادي، لقد بلغوا
الآن سبعة عشر حفيداً أريد أن يحيطوني إحاطة السوار بالمعصم، وأن
يطبقوا عليّ بأنفاسهم ..
- الصغار دوشه يا "أبو حسن" ..

- خليهم يلعبوا فوق رأسي ويفتحوا طاقة في "نافوخي"، ساعتها أقوم
مثل الحصان .

- نسيت شريكة حياتك .. أين ذهبت أم حسن ..

- آه .. آه .. إنها تاج رأسي، ولا يمكن أن أنسى فضلها الذي
أحاطتني به طيلة حياتها معي .. إنها ينابيع حينا جميعاً أنا وأولادي
وأحفادي .. أريد أن أقتعد مكاناً بينهم ولو للحظة واحدة قبل أقتعد
نعشي على أكتفاهم ..

- ربنا كريم يا "أبو حسن" ..

- ولا أنس قبل كل شيء، لا يملأ عليّ قلبي إلا أن أحرّ ساجداً في
رحاب المسجد الأقصى .. سجدة أذوب فيها في ميدان عشقي لله
وأذوّب فيها قهر هذه السجون الظالم أهلها ..
- اللهم آمين .. اللهم آمين .

١٩٩٩/٤/٢٠

عمر الخطيب: "المشعوذة"

كانت رحلة عظيمة .. كأنها جرت من عالم الأموات إلى عالم الأحياء.. ورغم ما فيها من قسوة ومرارة فلقد كان لها حلاوة لا أزال أجدها في قلبي .. كلما تذكّرت تلك الرحلة غبت في آفاقها الواسعة وآمادها البعيدة .. فأخرج مما أنا فيه بلا استئذان .. أغيب عن كل شيء مستذكراً آثارها الدائمة .. أقذف نفسي في أحضانها الجميلة.. أنطلق بمشاهدها الخلابة وأذوب في فتنها بلا ضوابط ..

مسافة هذه الرحلة لا تزيد عن خمسة كيلومترات ولا تسرق من الوقت سوى ربع ساعة .. وفي نفس الوقت أعترف أنها سرقت من وقتي ولا تزال تسرق عشرات بل مئات الساعات..

لبست في هذه الرحلة القصيرة / الطويلة لباس رجال الفضاء.. فسخاء الطبيعة وزخم المشاهد المتسارعة على بوابة قلبي تحتاج إلى الأكسجين الذي يكفي لتحريض هذه الصورة .. لذلك فإنهم وصلوني بحجرة أكسجين عاتية ضموها للوفد المرافق لي ..

وبعد أن اجتاحتني الصورة المخيفة في مشعوذة السجن /
"العيادة" التي أمضيت فيها أربعة عشر يوماً وأنا أتقلب بين مشاهدتها
المرعبة .. كنت حبس غرفة مظلمة .. رطبة، مكتظة بالروائح العفنة..
تشمُّ منها رائحة الموت .. تُطبق على أنفاسي من كل جوانبها .. الهواء
راكد، ساكن لا حياة فيه .. الباب مغلق والشباك مفقود .. فتحة
صغيرة في الباب .. تفتح وتغلق كلما أرادوا أن يتفقدوا أرواح هذا
الجسد .. إن كانت لا تزال متعلقة أم صعدت إلى بارئها في السماء ..
كانت قبراً يوضع فيه الأحياء .. حالة من الضياع .. رمادية اللون
وتستطيع أن تقول لا لون لها .. ماذا سيجري لك في هذه الغرفة
السحيقة .. فالداخل فيها مفقود والخارج منها مولود، هذا إن قُدِّر له
الخروج .

حظر تجول طويل فرضته "المشعوذة" على حركاتي
وسكناتي.. وذاك النطاس البارع استأصلني من السجن كما يستأصل
الزائدة الدودية ثم ألقى بي في أدغال طَبَّه الأسود .. كنت في حالة
صعبة داهمني ضيق النفس فأفرغَ صدري من الهواء وجعلني كمن يغرق
تحت الماء .. كان الطبيب لي بالمرصاد .. أحاطني بعنايته الفائقة
فوضعي تحت الاشراف المباشر، بعيداً عن الشمس وبعيداً عن أعين
الحساد ..

تمنيت العودة إلى غرفتي في السجن .. وجدت أنه أرحم من هذه الحجرة اللعينة القابعة في طرف هذه "المشعوذة" .. وقّعت على أوراق الخروج من "مدفن" العيادة على مسؤوليتي الخاصة فموتي عند أخوة النضال ورفاق الأسر أفضل ألف مرة من كل لحظة موت أعيشها حبساً في ما يسمى بالعيادة عند هؤلاء المشعوذين المهرة ..

لم يقدّر لي العودة إلى السجن، فبعد خروجي من المدفن وأنا أناور الطبيب الذي بدى كرئيس كهنة، داهمتني أمواج هوائية باردة .. نفث المكيف المعلق فوق رأسه هواءه الثقيل .. فملاً صدري الخاوي .. شعرت وكأن معركة حمي وطيسها بين الهواء المتعفن الذي إحتل مواقع استراتيجية أثناء وجودي في تلك الغرفة اللعينة، وبسبب الهواء الجديد الذي حاول السيطرة على الموقف وفرض نفسه بالقوة .. لم تحتمل أرض المعركة هذا الصراع، فلم أستطع الصمود شعرت بالاختناق .. تكوّمت على بعضي وسقطت على الأرض كتلة لحم زرقاء تصرخ من شدة الألم .. أطلقت آخر صيحاتي قبل أن أفقد الوعي وكأني أعلن نهاية آخر مشهد من مسرحية حياتي .. لا أدري كم مضى من من الوقت .. أتذكر أن صوراُ جاءتني تتراكض .. رأيت أمي، أبي، أخي، وأخواتي .. وكأني في حالة وداع نحو عالم مجهول .. ثم رأيت الأشباح من حولي .. فيما حفنة الكهنة يهيئون رجل الفضاء .. أنبوبة

الأكسجين .. إبر وبرابيش .. شعرت عندها وكأنني على سطح القمر
أفقد الأكسجين .. أتابع أنفاسي بسرعة وأبدل الكثير لأحصل على
القليل ..

حملوني إلى سيارة الأسعاف بعد أن قيّدوا يدي ورجلي ..
هناك خوف من حالة إنعدام الجاذبية على سطح القمر فأطير من بين
أيديهم .. وكما قلت فقد زودوني بما يلزم لتحميم الصور .. إنها
فرصتي العظيمة لاسترق النظر ..

إنها المرة الأولى التي أخرج بها من السجن منذ ثماني سنوات ..
تناسيت آلامي وتعاليت على جراحي .. رفعت عيني أنظر .. التقطت
الصورة الأولى ورحت أصول وأجول في عالمها ..

كانت الصورة الأولى: عملية ولادة قيصرية .. صورة
خروجي من رحم الغول الذي سأعود إليه ثانية .. متى يكون الخروج
الأخير؟ .. الله كريم!! هنا سيقف الأهل بجانب سيارتهم لاستقبال
إبنهم بعد خمس وعشرين سنة وقد يريد الله أمراً آخر .. هناك أمي
تنتظر الساعات الطوال لزيادة فلذة كبدها .. أنا، لقد أشعلت حبستي
الشيب في رأسها.. كم دمعة نزلت وهي تشكو ربما ظلم هؤلاء
الأوغاد وهم يتفنون في وضع العراقيل .. وفرض شروط مذلة ترضخ
لها أمي ويطأطي لها أبي رأسه كي يحظوا برؤية إبنهم ..

رفعت عيني .. نزعتها عن الصورة الأولى والتقطت الثانية:

شارع متحرك .. سيارات تسابق بعضها بعضا في سباق
مجنون .. حياة متحركة على العكس تماماً من حياة السجن الراكدة،
رجال يقودون تلك السيارات يختلفون عنا .. لهم أشكال جديدة ..
ذقون ناعمة وشعر أملس كشعر النساء في ألبسة مضحكة ثمة بقع
صفراء وخضراء تتوزع على قمصانهم .. يضعون نظارات دقيقة كأنها
خططت على العين بقلم رفيع .. هل هم في "فورة" حول الدّوار؟!
إنهم يدورون كما ندور في السجن .. لكن أحدهم يدور دورة واحدة
ثم يمضي مسرعاً في أحد الخطوط المتفرعة .. أما نحن فنندور وندور
كالبرغي الذي أغمي سنّه .. "البايز"

رفعت عيني وسحبت صورة ثالثة .. حداثق من الورد الأحمر
والنبت الأخضر لا أدري ما هو اسمه ..

إنه مدخل مدينة عسقلان .. زينوه بالورد .. لا بد وأن هذا
الأحمر القاني قد سقوه من دماننا .. أما ذاك الأخضر القاتم فلإنهم
أشبعوه من الهواء الذي صادروه من صدورنا ..

كل شيء يتنفس .. ترفع الأشجار أعناقها عالية وتنفس ..
ينفثون عليها دخان سياراتهم ولا تأبه بهم .. تماماً كما يفعلون بنا ..

يضرّبوننا بقنابل الغاز .. ولا تتأثر، تبقى أنوفنا شاحخة، نموت واقفين ولن نركع..

اعترف الآن أهم، بعد تراكم وتكدس نتائج هجماتهم الغازية أو النازية على الأجساد الجيد في ذاك العالم الضيق بعد أن وقعت فريسة للضعف الجسدي رغم بقاء الروح شاحخة محافظة على مكانتها السامقة ..

قد تدبل بعض تلك النباتات الطيبة كالتي رأيتها على حافة مصبّ مداحن تلك الدواب التي تمشي على عجالات ..

كانت بداية مرضي هذا إثر تعرضنا في سجن عسقلان إلى حملة قمع همجية سنة ١٩٩٢ .. هذا العام الذي انفجر فيه السجن غضباً وألماً كانفجار قنبلة .. بعد أن ضغطوه بسياسات قمعية .. سياسات سحق واستهداف واذلال .. عندئذ فتحوا "خراطيم" عبوات الغاز المسيل للدموع والمذهل للأعصاب .. احدث ما وصلت إليه عقول الاجرام .. كانت فيها كثافة الدخان تفصلك عن كل شيء حولك فلا ترى أبعد من أنفك .. سجيناً في سماء بيضاء من الدخان والغيوم .. كنّا فقدنا أعصابنا وجثونا تحت الأبراش ساحدين .. سجد معنا شعار نموت واقفين ولن نركع .. دوخته كثافة الغاز التي لا ترحم.. كان هذا اليوم بداية الشيخوخة المبكرة التي غزت رئتاي ..

خطفت صورة رابعة .. ندّت مني إبتسامة عندما رأيت سيارة
وقد انطفأ محركها وتجمع عليها الناس يدفشوها علّها تشتغل من
جديد.. تذكرت أول سيارة اشتراها أبي.. غشّوه فكانت لا تشتغل إلا
بالدفش و "التعشيق" .. حتى هذه السيارة انقطع نفسها.. تذكرت
حالي بالأمس وحالي اليوم.. حال هذه السيارة الحديثة التي تنطلق بخفّة
ورشاقة وأين هذه السيارة التي ينتظر الناس سماع "جعيرها" بعد أن
قُطعت أنفاسها كان لي جسداً يناطح السحاب بممة وعنفوان تشهد لها
ساحات التدريب.. كنت قد اكتنرت من القدرات القتالية ما يجعلني
من أوائل الصفوف.. استيقظ في الصباح الباكر وأبدأ يومي بنشاط
جذاب.. أحث بنشاطي غيري من الشباب.. كنت بمثابة الدينمو الذي
يمدّ الآخرين بالهمّة والحيوية.. أقودهم إلى الساحة حيث تدريب
الكاراتيه وألعاب القوى المتنوعة.. أما اليوم فهذا أنا كتلك السيارات..
"اللي بحب النبي يزق" ..

كهلّ أنا الآن رغم أنني مازلت في بداية شبّابي.. روحي
الشابة التي لا تزال بفضل الله أحتفظ بها لا تقدر على تحمل أكثر من
تلك الأربع وخمسين كيلو غراماً مما تبقى من لحم وعظم..
بداية تراجع جسدي كانت عندما شعرتُ بالتعب في الدقائق
الأولى للساعة الرياضية الصباحية.. كنت أتحامل على نفسي وأجبرها

على الاحتفاظ بالمكان المتقدم من الطابور.. تضعضعت أنفاسي..
تراجعت "مكرها أخاك لا بطل".. صفاً وراء صف إلى أن بت محسوباً
على طابور "الديتّا" طابور فرعي للركض لذوي القدرات المحدودة
تحت قيادة أحد كبار السن.. لم أكن أُعير الأمر أي اهتمام جدّي..
بتواضع شديد ورغم قساوة الأمر تراجع نشاطي الرياضي.. برّرت
لنفسي هذا التباطؤ.. رطوبة جدران السجن المستنقع الصناعي الذي
أُغرّقنا فيه وكذلك التغذية السيئة التي نتلقاها باتت تترك أثراً في
أجسامنا ..

أفقت من صورة السيارة المقطوعة الأنفاس وخطفت أخرى..
دخلنا شارع المستشفى المطلوب.. يا للهول.. رأيت نهاية الشارع على
مرمى البصر؟؟ رأيت البحر.. من بعيد رأيت زرقته الصافية.. الأمواج
التي تتكسّر في حوض الشاطئ الديء.. تأتيه راقصة كطفل مدلل..
تحنّ عنقها وتستلقي في حناياه.. تحلّف وراءها عناء سفرها الطويل
وتنام نومة هانئة.. لا شك أنها تتنفس الصعداء.. تملأ رثتها لتعود
رحلتها من جديد.. أيسطيع هذا المستشفى أن يملأ رئتي من جديد؟!
هواء البحر يملأ فناء الفضاء الرحب الفسيح.. ولكنهم هناك وعلى
مسافة قصيرة يصادرونه.. يحشرون الناس في الغرف الضيقة..

وقفت السيارة على باب المستشفى.. حملوني عبر ممر مخفوف
بالشجر.. وأيُّ شجر.. وجدت نفسي غارقاً في الصور.. الأشجار
الجميلة أَلقت بضياء عيونها على هذا الجسد الصريع.. سمعت بفطرتها
السليمة حشرجة صدري.. ربما ظلمتها فقاعات الهواء الفاسد الذي
يخرج من فمي.. ربما أدركت ما أعاني منه فانهالت عليَّ ببعض هوائها
الطاهر.. رددت عليها تحيتها بابتسامة متواضعة.. رأيت فيها الحرية التي
شعرت بأنها أصبحت بعيدة المنال... أصبحت أشعر بأن الموت أقرب
إليَّ من حبل الوريد...

ما هذا الشجر الذي لم أَره من قبل.. شجر زمان ما قبل
الحبسه.. زيتون، تين، لوز، كله شجر مبارك ولكن هذا يختلف..
شجر ينجي الروح ويُعمل سحره بسرعة... صفحات من الورق
الأخضر المدبَّب.. تصطف الرزمة منها بشكل أفقي.. تجتمع المجموعه
وكأنها حول مائدة.. وتنتصف هذه المائدة وردة حمراء تقف مغنّية
وسط هذا الحشد الأخضر.. تسمع وتشم رائحة هذا الفناء.. ما اسم
هذا الشجر؟! من أين أتوا به؟! إنَّ تخيل شجرة واحدة وسط ساحة
السَّجن كفيل بمداواة جروحنا.. كانت نخلة تناجيننا وناجيتها فقطعوها
قطع الله أعناقهم..

سلط الناس كاميرات قلوبهم على هذا الجسد المكبل.. عفواً رائد الفضاء الذي يخشى عليه من انعدام الجاذبية وانطلاقه في الفضاء بلا حدود؟؟ ماذا تراهم يقولون؟! سجين عربي!! اذن مخرب، تحضره شرطة السجن للعلاج.. يقولون بما اننا دولة متحضرة.. لماذا يكبلونه بهذا الشكل القاسي؟! ويقولون: كل دول العالم تفعل هذا.. ضروريات أمنيته.. شرطة غلاظ شداد.. قلوب لا ترحم..

فتيات ونساء جميلات. شبه عاريات؟ يتنفسن الهواء بسهولة ويُسر.. يتنظطن على الأرض.. أجسام صغيرة، بيضاء غضة، طرية، يستنشقن جمال الطبيعة.. نساؤنا أكبر حجماً وأقل حركة.. أقوى سمناً وأثقل رجلاً.. يمتطين الأرض وكأنَّهم جُبلن فيها.. ماركة مسجلة وليست مزيفة كهؤلاء.. فتاة تمشي وتتكلم مع نفسها.. أمعنت النظر.. وجدتها تحمل على أذنها قطعة بلاستيك صغيرة.. هذه التي يقولون عنها "بلفون"؟!

شقوا بي الطريق عبر أروقة المستشفى.. كلما أدخل ساحة تتلقفني العيون تماماً كما يحدث لبطل فيلم سينمائي.. أرمقهم بنظراتي الخائبة.. واشعر بالضبطة.. أصبحتُ محط أنظار الناس خاصة الأطفال.. الصغار جداً.. منذ فترة طويلة لم أر هذه الكائنات الصغيرة..

رأس صغير كحبة الرّمان.. عيون قطط زرقاء وخضراء..
البراءة تضيء جنبات وجداني.. تمنيت لو أنّ صحيّ معي ويتاح لي ولو
لمرة واحدة أن أقبل طفلاً وأمرّر راحة يدي على رأسه الصغير.. لا
يوجد أيّة حالة عدااء بيني وبين هؤلاء.. عداؤنا مع آلة الإجمام الحاقدة
التي تنهش أجسادنا وأعراضنا ليل نهار..

كَبَلُونِي بسرير الشفاء.. يعني لو كتب الله لي الشفاء فسيكون
شفاءً مكبلاً.. دخلت معترك العلاجات والفحوصات ست ساعات
متواصلة كانت روحي ترفرف فوق سريري، تتردد ما بين الموت
والحياة. كانت نظراتي التي ألتقطها جلسة نظرات مودّع. أمدّ الله في
عمري.. عدت ثانية حتى اذا استياسوا من تحسّن حاليّ شحنتوني إلى
مستشفى الرملة. هذا القسم المميّز بتفانيه في تحقيق أفضل شروط
الإقامة في قبر جماعي، تعمر أسرته بأجساد أمهكها الأمر والقهر..
حالات مرضيه منسيّة خلف القضبان.. تبوّأت موقعي بين بقايا اللحم
والعظم من خيرة أبناء شعبنا.. يودّع أحدهم الآخر كل ليلة خوفاً،
يتبادلون نظرات الوداع الأخير.. في هذا المنفى تموت كل لحظه..
تموت من كثرة ما ينسونك.. من روتين الحياة، من الضغط النفسي
وانعدام العلاج المناسب.. القهر والمرض يلتهمك ببطيء.. قطرة وراء
قطره أشق على النفس من بذل التّضحية دفعة واحدة .

والآن وبعد هذه التجربة المديدة على مدار خمس سنوات بعد رحلتي الأولى إلى مستشفى عسقلان لم يتبق في صحي سوى ذكريات، جهاز تنفسي كهربائي يث في صدري همومه الخفيفة أحياناً والثقيلة أحياناً أخرى.. جرّة من الأكسجين أتخلّلها أحياناً كبرميل بارود يوشك على الانفجار.. بخاخات تطلق شهيقها الطري في محاولات يائسه لمحو آثار سحب الغاز السام الذي استوطن هضاب صدري العالية، تماماً كما هي حال مستوطنات أصحاب شَعْر السوالف الطويلة والقُبَعات السوداء..

زجاجات الدواء والأقراص التي أخرج سمومها في الصباح والمساء.. هي حصيلة ما أهدتني إياه سنون المرض حتى الآن إلى جانب العجز الرئوي وصعوبة التنقل من مكان لآخر مهما كانت المسافات قصيرة..

إنّ ما يميز شريط ذاكرتي بعد هذه الرحلة الطويلة في أسر المرض وأسر السّجان، هو أنني أستطيع أن ألمح بوضوح إرادتي القويّة التي بقيت على حالها.. لم تنثن ولم تتكسر أمام هذه العواصف العاتية.. بقيت على حالي أسيراً صاحب رسالة مميّزة من الكفاح تتطلّب عمقاً في التميّز في الأداء والمواجهة، وعندما أضفت بعداً آخر وأصبحت أسيراً ومريضاً في نفس الوقت.. حملت رسالتي الكفاحية بعداً آخر،

فَرَدْتُ تَمَيُّزاً عَلَى تَمَيِّزِي.. شعرت بالتَّحدي في أعلى درجاته.. كان عليّ أن أبتعد بقوة عن صفوف الضَّعْف أمام اختيار المواجهة؛ لأنّ في ذلك ميلاً لصالح برنامج العدوّ النقيض .

عندما تشابكت مهمات عملي النضالي بمهمات ما أحتاحه من رعاية علاجية ضاعفت مستلزمات فحوضي وحضوري بواقع الأسر... لم تطق نفسي التنازل عن أيّ شيء كنت ملتزماً به قبل مرضي.. حتى الجامعة المفتوحة حافظت على التزامي بها رغم ما تحتاجه إلى جهود مُضنيّة.. لم أتنازل عن شيء سوى الرياضة التي لم يعد جسمي يتحملها على الإطلاق.. كنت أنظر من نافذة غرفتي على ساحة الرياضة كأسد قعدت به شيخوخته عن المشاركة في رحلة الصيّد والسعي في مناكب الأرض .

حافظتُ على برنامجي الذي رسمته أول الحبسة.. وإذا كانت الإرادة لا تعرف أي حدود فعلى ما يبدو، فإن الجسد الذي هو الامتداد المادي للروح وما تحمله من قيم يعرف معنى الحدود... يتراجع أمام تدني إمكانيات مواجهتك للبرنامج المادي والمعنوي المدمر الذي يريده لك عدوك... قد تجد نفسك أمام تراكم هجماته الشرسة فريسة للضعف الجسدي ورهينة للتناقض الذي يضع قاتلك في ثوب الملاك الذي يسعى لشفائك وضمان أمنك الصحي... هذا التناقض الذي ربما

لَنَ تَلْحَظْهُ إِلَّا بَعْدَ تَقَدُّمِكَ فِي الْإِعْتِقَالِ حِينَمَا تَرَى الرِّسَالَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ
تُذَنِّسُ يَوْمَ تَرَى الْمَرِيضَ وَالطَّبِيبَ يَتَمَتَّرِسُ خَلْفَ مَدْفَعِ غَازِ خَانَقِ
يُوجِّهُهُ نَحْوَ صَدْرِكَ .

ياسر المؤذن: "واحة الديمقراطية"

أنا لست "رون أراد".. أنا ياسر المؤذن أسير سوري عند "جهة معروفة"؛ "واحة الديمقراطية"، صورة العالم الحرّ والمتحضر في المنطقة!! أظهرت "إسرائيل" نفسها على أنها ضحية الإرهاب، وأن دماء إنسانيتها قد سفكها سيف أعداء الإنسانية.. إنها مسكينة، مقهورة، مظلومة، مستباحٌ فيها مواطنها الذي لا يعرف إلا السلام والعيش بأمان.. تمدّ اليد وغصن الزيتون للأيدي التي تريد لها الدمار والهلاك!!

وتقول: كان "رون أراد" في نزهة سياحية في سماء الله الواسعة فضلّ الطريق ومرّ في سماء الجنوب اللبناني، سقطت طائرة السلام، ووقع "الطائر الميمون" في الأسر.. لغاية الآن، الجهة الآسرة مجهولة الهوية، أصبح "رون المبكى الحديد" الذي تُذرف عليه الدموع.. يثيرون قضيته في كل المحافل الدولية.. يطالبون به في كل اللقاءات السياسية يحيون ذكراه، تجوب أسراب الطائرات العسكرية السماء.. يُرسل إليه

صقور الجو تحيّاها، تعلو الأصوات وتمتف الحناجر باسمه، تعرض أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة الأبعاد الإنسانية لابنته وهي ترسم وتكتب رسالة إلى "بابا" .. زوجته التي يقتلها الأسى والحنين، أمه وأبيه وقلوبهم المقطعة على ولدهم الحبيب ... هذه هي الدولة التي تظهر حسّها الإنساني المرهف تجاه أسيرها الغائب، ولكننا نجدها تُغيّب هذا الحس تماماً، تظهر بوجهها المظلم، تلقي من السماء كسف العذاب والجحيم على رؤوس الناس في القرى والمخيمات، كما ألقت ما ألقت على "قانا" وغيرها نجدها تلقي ويلاتها أيضاً على أسرانا في سجونها ...

أنا واحد منهم .. سمحوا لي!! بإحساسهم الإنساني النبيل!! بالاتصال التلفوني، لا أريد استثارة العواطف، ما أريده فقط هو أن نتحسس "إنسانية" هذا العدو المحترم، خاصة إذا أغدقوا بها على "الجويم" .

كان هذا الاتصال هو الأخطر والأعظم في حياتي، سمحوا لي بعد أن تقدمت بخمسة وأربعين طلباً عدداً ونقداً . ماذا سأقول لأبي وأمي في هذا الاتصال الذي حُدّد وقته لنصف ساعة، الاتصال الأعظم لأنه يأتي بعد انقطاع دام ثلاثة عشر عاماً ... أعوام في المقاومة في لبنان وعشرة في الأسر .. هو الإتصال الأخطر لأنني سوف أدهمهم بأسوأ نبأ سمعوه في حياتهم، سأخبرهم بأوضاعي الصحية الخطيرة والمخيفة،

كيف سألقي عليهم هذه الكارثة؟! مهما تلطّفتُ فيها، ومهما كنت دبلوماسياً وبارعاً، إلا أنّ المضمون ستلتقطه قلوبهم، وتتجرع قسوته ومرارته، فمهما كانت يد الطبيب خفيفة وماهرة فإن الإبرة ستحافظ على وخزتها، وستوصل بلاغتها إلى أعماق المريض .

حددوا لي موعد الاتصال، وكلما اقترب الموعد تصارعت الأفكار .. ماذا أقول لهم، وماذا أخفي عنهم؟!

هل أخبرهم عن حالة الفشل الكلوي التي أصبحت أعاني منها؟! سيمطرونني بوابل أسئلتهم؛ كيف حصل هذا؟! منذ متى؟! سيسأل أبي عن أدق التفاصيل .. هكذا كان منذ نعومة أظفاري فأنا ابنه البكر، أول العشرة، حظيت بحصّة الأسد من الاهتمام والتقدير، كان يشاركني بكل شيء، يصحّني معه إلى مجالس الكبار، آخاني وصادقني منذ صغري، كنت أشعر أنني كبير في قلبه، سار معي سنوات عمري الأولى يوماً بيوم ولحظة بلحظة إلى أن فرقنا نداء الواجب، التحقت بالمقاومة في لبنان وتركته في معترك الحياة يعمل ليل نهار لتدبير شؤون العائلة الكبيرة، سيسألني الكثير، أما أمي فستسألني دموعها، سيصل نهر دموعها إلى السّماء التي أقبضها بيدي، كان الله في عونها وعوني على هذه اللحظات، لن تستطيع الكلام وسيستغل أبي نقطة

الضعف هذه، يجب أن أُحضّر نفسي لأيّ سؤال، وحتى يكفي الوقت
يجب أن تكون إجاباتي مختصرة ومفيدة؟

هل أُخبرهم عن إجراءات المحكمة التي نظرت في التقرير
الطبي، وكيف تابعوا الإهمال المتعمد؟ ورغم التقارير المشوّهة فإن
الحقيقة ظهرت كفلق الصبح بارزة للعيان .. نظروا في فترة التشخيص
الأخيرة للمرض التي استغرقت خمسة عشر يوماً . كيف بهم لو نظروا
في معاناة السنوات الخمس والتطمينات الكاذبة التي كانوا يتفتّنون في
صياغة تبريراتها .. الإجابات جاهزة لأي مرض مهما بلغ .. كانت
أعراض المرض الظاهرة للالتهاب في المسالك البولية، ومع ذلك تجد
الإجابة: "مغص طبيعي"، "برد في الليل" .. عيادة كعجائز القرون
الوسطى .. "اشرب الماء" .. "شاي وليمون" ..

عندما نقلوني نهاية المطاف إلى مستشفى "برزيليّا" في
عسقلان، خلال ربع ساعة وبعد فحص دقيق كان الجواب الدقيق:
فشل كلوي، تحتاج إلى غسيل كلّي فوراً .. قطعت جهينة قول كل
خطيب .. سدت فحوصاتهم الباب على كل تبريراتهم المضلّلة،
تساءلوا بعد أن أذهلتهم النتائج:

- أين كنت لغاية الآن؟!

- في السجن!

- ألم تعرض نفسك على الطبيب؟
- منذ خمس سنوات وأنا "رايح جاي" على العيادة .. ولم أصل إلى هنا إلا بعد خمسة عشر يوماً، وصلت معي الأمور فيها إلى درجة الانهيار الكامل ..

لغاية ليلة أمس كان الطبيب يماطل في تحويلي إلى المستشفى، عمل مني حقل تجارب .. قال سأسقيك كأساً من الشاي والليمون وأرقب النتيجة؟! ولما رأى أنني تقيأها وبدأت أفقد الوعي مع إصفرار الوجه وذهول العينين .. أوصى بنقلي الى هنا ..
أحدهم وبصوت خافت كل ذرة في جسمي سمعته بوضوح
- قال لزميله:

- له عمر جديد .. لو فقد الوعي لما أمكن إعادته للحياة .. جاءنا في اللحظة الأخيرة لو تأخر قليلاً لكان الآن يحتضر في الموت السريري ..
لحسن حظي أن هذا التأخير الطويل في تشخيص المرض أمكن القضاة أن يلاحظوا حالتي من خلال تعليقات أطباء "برزيلاي" المكتوبة:
اتضح لهم الأمور .. لم تعترض الجهات الأمنية على إطلاق سراحي لخطورة وضعي الصحي وهذا نادر الحدوث لأن احتياطاتهم يبالغون فيها إلى درجة الهوس كما هو معروف لكل من وصل محاكمهم .. لم تعترض إدارة السجون عليّ وأنا أشكل عبئاً كبيراً .. هز القضاة

رؤوسهم وبدا عليهم الاقتناع بإطلاق سراحى فوراً والخلاص من هذا
الهمّ الكبير .. وصل اعتراض واحد فقط من مدّعيّ عام الدولة "الباكين
روبنشتاين" .. رئيس الوفد الإسرائيلي في مفاوضات السلام سابقاً ..
قال عبارة صغيرة ولكنها ضلّلت القضية بحقدّها وسوادها .. "إنّه
خطير على أمن الدولة" .. صدر القرار:

"رغم صعوبة وضعه الصحي ورغم الأبعاد الإنسانية المأساوية
إلا أنّ عليه البقاء في السجن فترة محكوميته البالغة خمسة وعشرين سنة
كما نوصي لجنة الثلث التي تنعقد لمناقشة وضعه بعد سبع سنين أنّ
تراعى وضعه وتطلق سراحه نظراً لأنه حسن السيرة والسلوك في
السجن" .

يُضرب المثل في قلوب الذئاب، لا أتصوّر أنّ للذئاب قلوباً
مثل هذه، للذئاب قلوب مهما قست ولكني أشكّ أن يكون لهذه
الكائنات قلوب رغم تشكيلاهما العصريّة الزائفة .. محاكم وقضاة ..
لجان وتقارير .. عيادات ومذابح تذبح فيها الضمائر والقلوب ..
عن ماذا أخبرهم في هذا الاتصال؟! عن معاناة الخمسة عشر
يوماً التي سبقت البركان؟!

في ٩٨/٧/١٥ انقضّت عليّ أعراض خطيرة .. رجفة في
اللسان والشففتين .. قيء متواصل .. فقدان للشهية .. سارعت إلى

المشعوذين في العيادة .. فحصوا وقالوا بثقة مطلقة: "جفاف ناتج عن الجوع الخماسيني وارتفاع الرطوبة" .. اعطوني فيتامينات - حسب ذمتهم والله أعلم - مع بعض الحبوب التي تعالج الجفاف .. بعد ثلاثة أو أربعة أيام وانا مواظب على وصفتهم المقدسة وأنتظر التحسن بفارغ الصبر، تضاعفت الأمور وأخذت منحاً خطيراً .. انتابني تشنجات في العضلات (قالوا لي أنّ هذه ناتجة عن الرياضة .. عليك أن تخفف من رياضتك ..) شعرت حينها بخطورة الأمر .. يستمر مغص الكلى منذ فترة طويلة .. وكذلك المعاناة في البول .. مع قيء وارتجاج الفم واللسان .

لعبت بي المواجهس .. انتابني القلب الذي هبط عليّ من كل جانب .. لا يمكن أن يكون كل هذا من الرياح الخماسينية ولا السبعينية .. فليست هذه المرة الأولى التي تمرّ عليّ هذه الرياح!! إن الأمر خطير بلا أدنى شك .. ولا يستطيع أحد أن يقدر الأمر أفضل مني .. قررت الصراع مع هذه العيادة النكدة .. كنت أتقدم إليها كطالب يد حسناء في بداية الأمر، يتمنّعون عليّ عدة أيام حتى أحظى أخيراً بأن يلقوا نظراتهم المشؤومة على هذا الجسد الذي يتقصّف ألماً .. قرّرت أن ألقى بكل ثقلي وأن أواصل نضالي معهم

حتى أصل إلى العلاج المطلوب .. أشعر أن مرضاً خطيراً ألم بي ولا حياة لمن تنادي .

في الفاتح من شهر آب لم أستطع إكمال تلك الليلة الطويلة في غرفتي .. قيء متواصل - آلام حادة تضرب بسكاكينها من كل جانب .. دارت بي الدنيا .. شعرت بأني مركز السجن والسجن يدور في فلكي .. تفوقعت "الأبراش" على رأسي .. رأيت نفسي معلقاً في سقف الغرفة وأرضها أصبحت سقفاً .. تتأرجح الغرفة كبندول الساعة .. نقلوني إلى المشعوذة - العيادة - الساعة الثانية ليلاً .. وجدت فيها مشعوذها الأكبر .. الطبيب المناوب - طبيب زنازين التحقيق - أوصاني بشرب الماء - علمت فيما بعد بأن الماء في مثل هذه الحالة يُحدث أضراراً كبيرة .. والآن بعد إنجلاء الأمر يُمنع عني أن أشرب أكثر من لتر في اليوم والليلة .. سقاني في تلك الليلة قرابة الخمسة لترات .. وعلق لي إبرة التغذية لكن بلا فائدة تذكر .. بل ازداد الأمر سوءاً .. طلبت منه تحويلي إلى المستشفى .. رفض وكان أفعى رقطاع لذعته .. قال لي: أنك سليم مئة بالمئة .. لا يوجد داعي ..

مكثت يوماً كاملاً وأنا أتنفخ والألم يتخبطني من كل جانب .. طلبت منه إما العودة إلى الغرفة أو إلى المستشفى وحملته المسؤولية الكاملة عما يحدث لي .. أحضر لي الشاي والليمون كآخر

شعوذة بمارسها علي ثم نقلوني أخيراً إلى المستشفى حيث وجدت
التشخيص السريع خلال ربع ساعة .. كان مستشفى آخر، مستشفى
بعيد عن أجواء السجون وطب الشعوذة ..

عن ماذا اخبر والدي؟! هل استطيع أن أخفي عنهم هذه
النتيجة التي وصلت اليها؟! هل وصلتهم أخباري عبر وسائل أخرى ..
الصليب الأحمر ووسائل الإعلام الفلسطيني تناقلت بعض أخباري
بإمكاني إخبارهم لو أن الأمر لم يصلهم عن البدايات التي مررت بها ..
وفي اتصال قادم أو عبر رسالة سأكمل لهم بقية الحلقات .. أما أن
أواجههم بالحلقة الأخيرة من المسلسل فالأمر سينقضّ عليهم
كالصاعقة.. أبي قد يتحمل أمّا أمي فهل تستطيع؟! أخشى أن تقوم
حالة الفشل الكلوي عندي بإفشال كل حياتها عليها .. سترك يا
رب..

اتخذت قراراً حاسماً سأخبرهم عن البدايات فقط .. الحلقة
الأولى والثانية .. فيما وبقية المسلسل يتتابع فيما بعد .. رفقاً رفقاً يا
حادي .

عندما أصابتنى الالتهابات في المسالك البولية في البدايات كان
يسهل العلاج في مثل هذه الحالات .. لكن لم يكن تشخيص ولا
علاج فانتقلت الالتهابات إلى الكلى نفسها .. غزتها بسرعة .. فرضت

شروطها كاملة حتى أصبحت تعيد البول عليها كما يتلقى المهزوم
مرارة الهزيمة ..

كنت أعاني من آلام حادة فأتوجه إلى المشعوذة فتأبى أن
تحولني إلى أخصائي الكلي والمسالك البولية رفضت بشدة إجراء
التصوير أو إجراء الفحص المطلوب . خافت من انكشاف عورتي!!
نسيت نفسي ودخلت إلى الحلقة الثالثة .. يكفيهم أن أخبرهم عن
التهابات في المسالك .. والكلي ايضاً .. ونقطة .. البقية تتبع .. يعني
هذا: خمس سنوات في كلمتين ..

سأطلّ عليهم عبر هذا التلفون السحري لأسحرهم بأخبار
المشعوذة .. صورتي في خيالهم هي لذلك الفتى الذي يشتعل فيه لهيب
الشباب وحماس الثورة .. الشاب الطموح الذي يحمل على كاهله
عبء تحرير فلسطين وكأن فلسطين خُلقت له وحده .. فتى السبعة
عشر عاماً .. هل تضيفون إليها عشرة سنين في الأسر وهذه تحسب
بعشرين على الأقل .. أضيفوا معاناة الأسر ومعاناة المرض حتى تجدوا
أمامكم كهلاً قد قارب الأربعين .. أطلب منكم أن تستنسخوا صورتي
الاولى فلا تزال روحي هي روح ذلك الفتى .. فالعبرة في الروح التي
تمتطي هذا الجسد الفاني ..

قرّرت ان اخفي عنهم الكثير .. قررت إخفاء عمليات
الغسيل التي أواظب عليها، منها اكتشاف هذا الغسل ..
يوم بعد يوم .. أعكف أربع ساعات .. أشارك فيها اعضائي
الداخلية بعقلي وقلبي .. تصطف أحاسيسي، ومشاعري تعزف أوبرا
حزينة .. تصلح لتشيع ميتاً يأبى مغادرة الجسد .. يأبى أن يُدفن ويزرع
مكانه .. فالزراعة تحتاج إلى متبرّع وهذا يحتاج إلى انتظار في دور
طويل ..

قال لي أحد الأطباء: .. هل تتصور إن وصلك الدور أنهم
سيقدمونك على يهودي؟! قال آخر: إن لك تسع أخوة في سوريا ..
بإمكان أربعة منهم التبرع إليك .. ما عليك إلا استدعاء أحدهم ..
قلت له: هكذا بهذه البساطة!! أحضر أخي الذي لم أره منذ ثلاثة
عشرة عاماً .. تنتزعون كليته الحرة من جسد حرّ يعيش في بلد حرّ ..
توقعونها في أسر جسد آخر كان قد وقع في أسركم، وترفضون إطلاق
سراحه؟! كيف تفكّرون؟! تفكير الغاب يشطح بكم؟!

لن أخبرهم عن يدي التي باتت لا تستوعب وصلة الغسيل ..
وصلوا الشريان بالوريد فأصبحت دائمة الاهتزاز وكأن رجراجاً
كهربائياً قد زُرِع فيها .. أصبح الغسيل يتم من خلال وصل "البريش"
بشريان الصدر .

ماذا لو ارتسمت صورتي في أذهانهم وأنا ملقى أربع ساعات
أتبادل الآراء؟! أنادي من أناشد .. أشكوا لهذه الآلات الضاغطة
والقابضة بلا كلل أو ملل .. أعطيتها وتعطيني .. أحياناً أجد فيها أنسي
وتفريغ كتي .. تأخذ وتعطي (كثير من بشر هذه الأيام يأخذون ولا
يعطون) .. أحياناً أخرى أجد فيها بلوة كبيرة تصبُّ في صدري المصيبة
التي تفرض نفسها ولا مناص منها

صورتي الآن ستقلب الأرض من تحتهم، ستطبق سماءهم على
أرضهم فيسيرون في هذه الحياة بلا سماء ولا أرض .. أبي وأخوتي
سيتلقون هذه الصورة بصمت حزين يرتسم على وجوههم .. وعند
أمي وأخوتي ستنتطلق جداول الدموع من مصادرها بطلاقة .. لن
تحبس إلا حين يُفرج عني وتُزرع لي كلية حياتي .. ليست حياتي
وحدي وإنما حياتنا جميعاً ..

كانت صورتي التي أرسمها لهم عبر رسائلي قبل هذه الطامة
هي صورة الشاب الرياضي، مفتول العضل الذي يملأ وقته بمحبة
ونشاطاً .. كانت اخبار دراستي الجامعية أصل بها إلى مواطن السرور
في نفوسهم .. أشعرهم بأن سنوات أسري لن تذهب سدى، وأنني
سأعود إليهم يوماً من الأيام وبيدي الشهادة الجامعية .. لكن، خسارة
.. قطعني المرض عنها الآن .. ما أشدُّ ما يتعسني هذا الانقطاع ..

اقتربت ساعة الصفر .. جاءت لحظات الاتصال تمشي
مترددة.. تقدم خطوة وتؤخر أخرى .. أحياناً أتمنى أن نخطئ العنوان
فأعفى من سيل هذه المشاعر الملونة .. اختلطت فيها ألوان قرح الجميلة
بالألوان السوداء .. وأحياناً أخرى أتحرق شوقاً لسماع أنفاسهم مهما
كانت، مبهجة أم حزينة ..

رفعوا لي السماع بعد أن طلبوا الرقم .. يكاد قلبي يخرج من
صدري .. يتراقص بين يدي .. جلدي يقشعر .. أرجلي لا تكاد
تحملني .. أنقذني كرسي بجواري يشكو كثرة مقتعديه .. ألقيت نفسي
عليه .. تحملني .. ضاقت بي قدمي ..

أذهلتني المفاجأة .. بعد الآهات والكلمات المتلعثمة مع أبي ..
فاجأني بأنه يعلم كل شيء عني حتى أدق التفاصيل .. دخل صلب
الموضوع مباشرة:

الفشل الكلوي ... وكأن تقريراً طبياً مفصلاً بين يديه ..
قال: إن اخوتك كلهم ينتظرون الافراج عنك .. كلياقم جاهزة
وتنتظر الزراعة في أرضهم المباركة .. جسدك أرض حياتهم
وأرواحهم.. يفدونك بكل شيء .. إنزاح عني ثقلاً عظيماً .. تنفستُ
بعمق .. أراحني من هم تبليغ اخباري التي لا تسر صديق ..

انتقلت السماعه إلى أُمي .. لم أسمع سوى دموعها .. حاولت
كل جهدي لأسمع كلماتها، لم أستطع .. الوقت يمضي سريعاً والبكاء
يزداد ارتفاعاً .. كل كلمة مني تسكب النفط على لهيب عواطفها ..
أشعلت النار في آباري النفطية .. فجرت مخزون مشاعري التي اتقنت
دفنها منذ زمن بعيد .. رجوت ان تعود السماعه إلى ابي لوقف سلسلة
هذه التفجيرات في أرضي وأرضها المغمومة .

عاد صوت أبي، تنحّت أُمي بنحيبها الصاحب جانباً .. تكلم
أبي وكأن فرقة موسيقية خلفه تعزف لحناً حزيناً يضحّ بالحنين والحبّ
والحياة ..

دارت عقارب الساعة بسرعة .. لم يتبقّ من الوقت شيء ولم
يتبق من الكلام سوى بث التحيات والسلامات .. عانقَ إخواني
وأخواتي السماعه .. وزّعت عليهم كلماتي المقتضبة .. أنا بخير،
معنوياتي عالية، لا تقلقوا، الفرج قريب الصحة مستقرة وجيدة، تُفرج
إن شاء الله .. سأكتب لكم بالتفصيل .. مشتاق إليكم .. وانتظر
رسائلكم .. مع السلامة .. في أمان الله .

كان هذا اليوم، يوم الاتصال بأهلي يوماً تاريخياً في مدار
أسري .. ألماً بارزاً لن أنساه ما حييت .. اليوم يوم استراحتي وغداً

"برزليا" والأربع ساعات على إقاعات "البريش" والغسيل
الصّاحب.. في واحة الديمقراطية .

جمعة اسماعيل: "صخرة في صدره"

أكّد لي بأنّه رأى "عزرائيل" .. قلت له: إن ملك الموت لا يُرى، ثم إنه لا يأتي إلا لقبض الأرواح .. لا يتردد على المرء إلا مرة واحدة .. هي الأولى والأخيرة .. زيارة تكون فيها القاضية .. (ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها) .. عصر عينيه وقبض جبينه وقال:

- من يكون إذن؟! لقد رأيته بعيني هاتين .. حسبته شرطياً في البداية.. أمعنت النظر فإذا به يطوف حول سريري ويتحرك بطريقة لا يمكن لشرطي أن يقوم بها .. خيم عليّ .. أطبق جناحيه .. اقترب فكان أقرب لي من حبل الوريد .. تشاهدت على روحي، ولكنّه خفّ عني وانسحبت من الغرفة بسلام ..

تساءلت متشكّكاً:

- قد تكون أضغاث أحلام طالما أنك كنت في حالة غيبوبة أو بين الغيبوبة واليقظة؟ ..

- لا .. لا .. كنت قد انتهيت من هذه الغيبوبة اللعينة كفاك الله شرها.. وصلت الموت ولكن الله سَلَّمَ ..

- سمعنا عما جرى لك ونحن في عسقلان .. قالوا لنا إن "أبو اسماعيل بين الحياة والموت" .. اعتدل، قوّم جلسته .. شعر بأن أمامه من يحاول مشاركته في حمله .. "الناس تواسي بعضها البعض .. صحيح أن الذي يأكل العصي ليس كَمَن يَعُدّها، ولكن في المجاملة والمؤانسة تخفيف من هذا الحمل الذي يثقل كاهلي ويضغط على صدري" ..

- كان أسبوعاً صعباً .. أطول أسبوع في حياتي، شعرت، وكأنه سبع سنين، اليوم بسنة .. ضاق بي صدري .. شعرت بأني أبتلع حجارة كبيرة .. تدخل إلى صدري ثقيلة تتراكم بعضها فوق بعض ولا تستطيع الخروج .. شعرت بجهمم التي من وقودها الحجارة .. ماذا تفعل في صدري؟ من يخرجها؟! أين الهواء الخفيف الذي كان يدخل ويخرج دون أن أشعر به؟ .. أصبح صدري كتلة حجرية واحدة لا يستطيع الهواء أن يشقّ طريقه .. اختنقت .. وددت لو لفظت أنفاسي الأخيرة وخلصت من هذه الورطة .. بل تيقنت أنني في الدقيقة الأخيرة من عمري .. مرّ عليّ شريط حياتي بصورة سريعة متقطعة كفيلم سينمائي شوّهته يد الرقابة من كثرة الشطب والحذف .. تذكرت طفولتي في المخيم .. الفقر، الجوع، والاحتلال .. تركي المدرسة

ودخولي عالم العمل والكدح وأنا ما زلت في طفولتي .. غربي
الطويلة.. الشام وزواجي هناك .. أولادي الذين انقطعت أخبارهم منذ
عدة سنوات .. عودتي إلى أم إسماعيل .. أولادي وبناتي .. ثم جاءني
الحبسة "تمشي على استحياء" .. غيمة سوداء استقرت في سماء
وجداني.. فرضت نفسها بعنف .. ناطحتها فلم تتزحزح .

تذكرت مناوشات أم إسماعيل لجنود الاحتلال وكفاحها
الطويل في مظاهرات التضامن .. أبلت بلاءً حسناً وكانت معي خير
سند .. حاولت تبديد هذه الغيمة ولكنها استعصت وأبت، كأنها ضرة
قوية يحسب لها ألف حساب ..

أسافر في عالم ذكرياتي فتعيدني هذه الصخرة التي تكلست في
صدري سريعاً إلى بوتقة الألم والاكتواء بلهيبٍ دامٍ أشعل روعي ناراً
وألماً .. فتكت بي نار المرض ونار الأسر ونار الذكريات العزيرة التي لم
تتركز في حالي "فزادت الطين بلة" .. تخربت الألوان .. تشابكت
الأجسام من حولي .. أغلق على عيني الضباب الأبيض، استقرت
الصخرة في صدري فهوت بي إلى قاع بحر الظلمات فغيبي عن
الوجود..

لا أدري كم مضى من الوقت .. قالوا لي فيما بعد بأنه
أسبوع .. انقشعت الظلمات عن عيني .. أفقتُ من كابوس مزعج ..

رأيت أضغاث أحلام تتقلب صورها وتغادر بسرعة وكأها على عجلة
من أمرها .. قلت في نفسي: لا بأس فنحن في عالم عجيب .. عالم
السرعة .. حتى الأحباب يطلون عليّ إطلاله سريعة ما تلبث أن
تتلاشى مرتفعة عن مخيلتي .. تشابكت الدوائر ثم تركزت في دائرة
واحدة .. تجرأت .. خفت من رؤية عالم الأموات .. هل أنا حيّ أم
ميت .. أذكر أنني متّ وحررت شهادة الوفاة بعد ابتلاعي الصخرة
الكبيرة .. لا يمكن لإنسان أن يبقى حياً بعد هذا البركان الذي ألقى
بكل حممه في وديان صدري .. تشجعت وكشفت عن بياض عيني ..
استرقت النظر .. لم أر ملائكة العذاب ولا ملائكة الرحمة .. رأيت
"برابيش" العذاب في يدي وعلى أنفي .. الماء والهواء يصب الحياة في
هذا الجسد المتهالك .. رأيت الزبانية .. حاولت إغماض عيني ولكنني
وجدتها قد تسمّرت على الزبانية .. تقذفهم بلعنات أبدية .. إنهم زبانية
السجن .. عن اليمين وعن الشمال قعيد .. حراسة لا تنطفئ ليل
نهار .. أيها المجرمون .. تحرسون رجلاً على فراش الموت .. تلقنوني
الحقد واللعنات .. ثم إني لحت القيد في رجلاي .. يا فرحتك يا "أبو
اسماعيل" إياك أن تهرب .. الأرجل مربوطة بالسريير إلا إذا استطعت أن
تهرب مع السريير ..

لقد هبأ لهم شيطانهم بأنهم يجسسون جناً مارداً من نار وليس
إنسياً من لحم ودم، شعرت بأن ثقلاً جديداً قد هبط عليّ وأغرق
كياني كله .. سمعت كل شيء من حولي يقول لي "لا حمداً على
سلامتك" .. حتى شرطة الحراسة والتي تعودنا على تبادل المحاملات
معها رأيت في عينيها الشماتة .. ورأيت الضيق على وجوههم عندما
شاهدوا عودتي للحياة .. تخيلت نفسي في مستشفى محترم .. أم
إسماعيل على يميني والأولاد يلتفون حول سريري .. أم إسماعيل
تحتضن رأسي براحة يدها وتشد بيدها الأخرى على يدي .. الأولاد
يتسابقون بابتساماتهم .. يوزعون عني حلويات السلامة .. الأطباء
والمرضين والمرضات يغطوني على هذا الحنان المتدفق من هذه
القلوب الرقيقة .. ودموع الفرحة تختلط مع دموع الحزن والشفقة
والحب .. ثم تتوالى زيارات الأحباب .. أطلب من الأولاد الذهاب إلى
مدارسهم، وأبقى مع أم إسماعيل نستقبل ونودّع .. أخلو بها وأبادلها
نظرات شبابنا وأيامنا الحلوة .. كنت أغمض عيني على هذه الصور ..
أضغط جفوني عليها .. أخاف من النظرة الواقعية التي تحدّد ملامح
أقصى صورة عرفتتها في حياتي .. تماثيل بشرية جامدة لا تعرف غير
الحقد .. أدوية وعلاجات تنقذ من الموت ولكنها تقيك على حافته،
تتنظر وترقبه في كل وقت، وحين تتجرع الموت ألف مرة قبل أن

تلاقيه .. الموت قبل الموت .. الموت الذي يجعلك تتمنى الموت فلا
تلاقيه ..

قطعت تأملاته محاولاً سحبه من ظلام تلك الذكريات .

- وبفضل الله عدت سالماً "أبو اسماعيل" .

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .. مكثت بعدها فترة
طويلة لا أستطيع الحركة .. أعادوني إلى هنا .. قام الشباب على
خدمتي .. كنت إذا أردت شربة ماء لا تقوى يدي على نقل الكأس
من الطاولة إلى فمي .. أتذكر الخال "أبو مرزوق" كيف كان قبل
وفاته رحمه الله .. أية حركة تتطلب مجهوداً عظيماً .. صدري لا يقوى
على لفظ أنفاسي عند أي فعل مهما كان بسيطاً .. تناولي الطعام كان
كمن يعمل في الحاجر فينقل الحجارة الكبيرة من الحجر إلى الكسارة ..
كسر الحجارة أهون عليّ من مضغ الطعام ..

- ولكن صحتك اليوم أفضل بكثير ..

- هذا من فضل الله .. كتب الله لي الحياة رغم ما أعاني من الأزمة
والسكري وارتجاج في المخ يؤكد لي آلاماً دائمة في رأسي، ولا تسأل
عن آلام المفاصل والتهاب في البروستاتا فإنها من نافلة القول ..
- فرج الله قريب يا "أبو اسماعيل" ..

- أي فرج .. أنا شخصياً لا أطلب سوى العلاج .. والفرج لا يأتي منهم .. لا يأتي إلا من الكريم .. أذكر يوم الإفراجات كنت في عسقلان .. قالوا لنا إنهم اتفقوا في طابا على أن يُوقَّع الأسرى على وثيقة تعهّد تقضي باحترام عملية السلام .. نادوا اسمي للتوقيع .. قلت ولم لا .. أنا دائماً أفرض احترامي على الجميع .. أأحترم وأُحترم وما في القلب يبقى في القلب .. (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) .. وصلت إلى الإدارة وقال لي ضابط الأمن لعنة الله عليه .. أينما حل وأينما ارتحل:

- أنت محكوم مؤبداً وعشر سنوات .. رفعت عنك العشر سنوات وبقي المؤبد .. جاءتنا مخالفة سير عليك دفعها .. خمسة آلاف شيكل..

كانت هزّة عنيفة ضربت أرض معنوياتي بألف درجة على مقياس ريختر .. زلزلتني من أعماقي .. طوحت أحلامي التي رسمتها بسرعة في ميدان الحرية .. عدتُ إلى رائحة السجن والسجان النكدة بعد أن تنسّمت شذى الحرية .. عدت إلى الهاوية بعد أن صعدت إلى أعلى وأوشكت على الخلاص .. كان الله في عوني على تلك اللحظات ما زلت أرتعش على ذكرها وأتحسس ضربات قلبي الصاخبة . هززت رأسي وقلت:

- كان الله في عونك .. أروف ..
- "والا هوها الأمراض اللي بحملها من قليل" .. لي سنتين ونصف في المستشفى هنا والله وكيلك كل أدويتهم مسكنات لا علاج فيها ..
- ستفرج بإذن الله وأرجلهم على رقاهم .. وإن شاء الله تتزوج الثالثة ..
- "اهتز كرشه الصغير ضاحكاً" .. شعر بتعب صدره، زوَّده برذاذ بَخَّاخته الزرقاء فالحمراء .. مسح عرق جبينه وقال بعد أن أضاء عينيه ..
- أنا لا أرضى بديلاً عن أم إسماعيل .. ثم أنه لم يتبق من العمر أكثر مما مضى .. ٥٨ عاماً أطمع بحسن الختام وتحقيق مرضاة الله .
- والمستقبل يا "أبو إسماعيل" ..
- لا أنتظر سوى رحمة الله .
- والإفراج ..
- طبعاً الترويجة ضرورية حتى أحج وأزوج الأولاد وبعد ذلك أهلاً ومرحباً بقاء الله ..
- قلت مبتسماً ..
- بعد ذلك وليس قبل ذلك .. وما ذلك على الله بعزيز ..

علي شلالدة: "ما لها إلا الله!!"

فرعنا من نومنا الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل..
كان صوت جارنا "أبو الحسن" يتأرجح بين الضعف والقوة .. صوت
جهوري هذّة الإجهاد وأعمل فيه معوله الذي لا يرحم .. وقفت على
باب غرفتنا فوجدته متعلقاً بشباك باب غرفته .. لاحت لي صلته التي
كستها حبات العرق .. كان كطائر بلّهُ المطر .. كان ينادي والممرض
لا يستجيب لندائه .. ساعدته في النداء .. رفعت صوتي عالياً .. سمع
الممرض، وعندما رأى اصفرار الوجه وشحوبه الواضح للعين المجردة،
سارع بإجراء الاتصالات اللازمة لفتح الباب في الليل .. فتحوا الباب
وأخرجوه إلى العيادة .

تربعت على "برشي" .. "أبو الحسن" علي شلالدة المحكوم
خمسة وعشرين سنة على خلفية قيادة مجموعة عسكرية في مقاومة
الاحتلال وزرع عبوات ناسفة .. لم يقضٍ منها سوى تسع سنوات ..
كان الله في عونهِ .. تداعت عليه الأمراض (كما تتداعى الأكلة على

قصعتها) تناوشته من كل جانب، وأحياناً تطرحه أرضاً فيرى الناظر إليه جبلاً أصبح قاعاً صفصفاً .. طويل القامة، ضخمة الجثة، كرش بارز، رأس يفيض حيوية يُطلُّ عليك من فوق مرتفع عالٍ .. تسمع لصداه أزيزاً كأزيز المرجل .. يبدو أنه في العقد السابع رغم أن عمره واحد وخمسون عاماً .. أعلم عن معاركه مع المرض الكثير .. أتذكر حينما كان في عسقلان سنة ٩٢ .. قلع طبيب الأسنان له ضرساً وزرع مكانه التهاباً دائماً يقض عليه مضجعه بين الحين والآخر ولغاية اليوم .. فكُّه ملتهب ويضرب على صفحة وجهه .. أزاح هذا الالتهاب بصره .. قال له الطبيب آخر مرة ساخراً: قد تحتاج إلى زراعة فك في يوم من الأيام .. "كورس" مضادات حيوية وراء آخر ولا حياة لمن تنادي .. هذه إحدى المعارك البسيطة التي لم تُحسم بعد.. أما المعارك الكبيرة، ومتى تضع الحرب أوزارها، فيظهر أنها ستتحقق هناك في جنات النعيم ..

بقيت مشدوهاً بعد أن طار النوم من رأسي .. أتذكر معارك هذا الرجل في مواجهة أمراضه العاتية .. بدأت معه الأزمة أثناء فترة التحقيق اللعينة .. زنازين المسكوبية معروفة في حضنها الدافئ!! تفيض حناناً وعشقاً لزيائنها الكرام .. تمسك عليهم أنفاسهم بشمِّ هوائها .. طاقات تمويتها مزروعة في سمائها، والذي يتحكم بتزويد الهواء هم

المضيّفون أولاد النعم الكرام .. ويل للضيوف المشاكسين الذين لا يقدمون بين يدي مضيّفيهم الاعترافات المطلوبة .. عندها ينزل عليهم سخط سمائمهم بإغلاق تلك الفتحات في جحيم العذاب الذي يتناولهم صباح مساء ..

ضاق صدر أبي حسن في تلك الزنازين .. "الهواء، الصديق الغالي قطعوا صلته الحميمة بي .. صادروه .. اعتقلوه .. أرادوا خنقي .. فرغ صدري من الهواء النقي وأتعبوه بموائهم الدّنس .. صدري الذي اعتاد على الهواء الطلق .. ذلك الصدر الذي لم يتعرّف في حياته إلا على هواء الحرية .. قمعوا هواء حريتي ولم يفسحوا المجال لهواء ربي أن يتسلل إلى صدري إلا بصعوبة بالغة وبعد أن يشبعوه بروائحهم النكدة ورطوبتهم العفنة" ..

نَمَتْ وترعرعت الأزمة في صدره من زنازين المسكوبية حتى إذا اشتد سوقها هبطوا به إلى سجن عسقلان وسط مدينة صناعة تعجّ بما يشرح الصدر من غازات المصانع والمداخن التي تنفث سمومها .. تشبعت رطوبة الجوّ الساحلي المنعشة بكيمائيات المصانع الكاوية .. تسمّمت الأحياء بهذا الخليط الثقيل الذي يفرض نفسه على الصدور ببلادة عجيبة .. يمهد ويهيئ الصدور لزراعة مجيدة وحصاد أعلى الأمراض ..

تضاعفت الأزمة في الأجواء العسقلانية .. ضاق بها صدره
تعالوا خذوه إلى نفحة حيث الجو الصحراوي .. إنه المستشفى الطبيعي
لأمراض الصدور .. صحيح أن هناك البرد القارس في الشتاء والحر
الشديد في الصيف، ولكنه أرحم من هنا، ويعرف كيف يكرم
ضيوفه.. وفعلاً قام بالواجب بعد اثني عشر يوماً اضطروا لنقله إلى
مستشفى "سروكا" بعد أن تدهورت صحته وضاق صدره بصحراء
نفحة وما رحبت .. كان يشعر في ذاك المستشفى وكأن سكيناً قد
أثبت في مركز الصدر ثم جعل يدور بحركة دائرية فيقطع كل ما يقف
في طريقه .. معنويات أبي الحسن عالية نزلت عن سقف مطالبها، لم
يكن له سوى مطلب واحد .. العلاج .. وخذوا بعد ذلك ما تريدون.
عندما يشتد ألم صدره، ويضرب بطوقه الضاغط وفي نفس
الوقت يتأخر ويتقاعس العلاج، تأتيه مصائبه بقيادة مصيبة الأسر ..
تلح عليه وتضغط هي الأخرى على صدره وأعصابه ورأسه وكل
ذرات جسمه .. كان يقول: ماذا لو أتي في بيتي أجلس على الشباك
الغربي .. ذاك هواء أرى فيه شفائي .. ثم أتي أختار طريقة علاجي
بيدي .. أذهب إلى الطبيب المختص في الوقت المناسب .. قاتلهم الله
دائماً، علاجهم يأتي متأخراً بعد فوات الأوان .. يفرضون علينا أطباء
وكأنهم جاءوا عبر الأطباق الطائرة من كوكب آخر .. بعضهم لا

يستطيع إخفاء حقه .. أحدهم غرز إبرته في الوريد ففقدت الوعي وارتفع ضغطي .. قال لي فيما بعد أحد الأطباء الأسرى بأن هذا المصل لا يجوز مطلقاً أن يُعطى بهذه الطريقة ..

كان أبو الحسن، عندما يشرح تلك الحادثة، يعتصر ألماً ويقول: لقد أحدثوا بي أضراراً عظيمة .. أفسدوا أكثر مما عمَّروا .. بعد تلك الحادثة، ضغطي غير منتظم، إضافة إلى الزلال الذي استقر في أرجلي فضاعف من معاناتي .. قلت له في إحدى المرات: "ألا تثق بعلاجهم؟!" ردّ قائلاً: بعد أن قطب حاجبيه:

- أعود بالله .. أذكر لك قصة حصلت معي .. إحدى المرات فتحت قنينة الدواء التي صرفوها لي في ذلك اليوم .. وضعت منها في جهاز التنفس بعد أن داهمتني أزمة خائقة .. شغلت الجهاز وبدأ يث شجونه الحانية .. وصلتي فاهتز بها كياني .. نخرت في صدري رائحة نتنة، "فطيسة" .. قلت في نفسي: تصبّر لعل هذه الرائحة من الخارج ولكّني لم أستطع المتابعة .. قرأت على زجاجة الدواء فإذا بتاريخها قد انتهى .. راجعتهم فأبدوا دموع التماسيح والاعتذار ..

ها أنت ترى الشكل شكل المستشفى، أما المضمون ومستوى العلاج فإنه كإصطبل للدواب أعزّك الله .. تجد لعلاجهم حلاوة، ولكنه يروغ في دماننا كما تروغ الثعالب .. إنه خبث يهود ..

قلت له:

- ولكنك تتابع معهم علاجك؟ سارعني بالإجابة ..

- لا يوجد بديل ..

لم أستطع النوم حتى أعادوه في ليلته تلك .. انتظرت الصباح .. يمت وجهي شطره .. وجدته في غاية القلق والاضطراب .. قلت له مستفسراً:

- خيراً إن شاء الله "أبو حسن" .

- لن نجد الخير وهم في وجوهنا .. وجدوا ضغطي مُرتفعاً وخلجات قلبي متوترة .. يدي اليمنى لغاية كتفي مع ألم في الجهة اليمنى لصدري، قالوا لي .. إنَّ معي آلاماً في القلب .. أعطوني حبة تحت اللسان، وضربوني إبرة مورفين .. ها هم قد أضافوا لي مرضاً جديداً .

- أعانك الله وقواك .. الله المستعان "أبو حسن" .

- الحمد لله .. لولا شعوري الدائم بعون الله لخرَّ سقف معنوياتي منذ زمن بعيد .. أشعر وأنا أتناول دواءهم وكأني في حرب صليبية شرسة. أتجرعه ولا أكاد أسيغه، يتعمّدون تحطيم معنوياتي وغزو نفوسنا، ولكن الله اكبر .

غرقنا في لحظة صمت بدت لي طويلة لأني رحت فيها بعيداً .. رحت فيها لأولاده الاثني عشر .. زاره أحدهم بعد غياب طويل ..

كان أبو حسن يتكلم معه على أنه ابنه حسن .. تفاجأ بأنه أخطأ العنوان، إنه "هاني" وليس "حسن" .. تسع سنوات وأولاده لا يسمعون عن أبيهم الأسير إلا المعاناة والمرض .. أعز حبيب على قلبك يُعصر، يقهر، يخنق، يموت كل يوم مئة مرة ولا تستطيع أن تفعل له شيئاً سوى زيارة روتينية مرة كل أسبوعين، وبعض الاعتصامات والمظاهرات التي تطالب بإطلاق سراح الأسرى .. إتفاق سلام خلف اتفاق .. لجنة خلّفت لجنة تكاثرت تكاثر البكتيريا ولم تسفر عن شيء، بل بددت الآمال وطار من النفوس حلم الإفراج عن هذا الأب المريض.

عدت إليه من صمّي فإذا به غارقاً .. تصورته يغرق في بحر من الكبسولات والعقاقير الطبية .. تصورته وهو يتألم من سياط المرض ومن سياط الدواء وألاً مفرّ من أحد الخيارين .. يتلوى ألماً ويختار سياط الدواء .. يبلع ويتجرّع الألم فيضيف ألماً إلى ألمه "وما يجبرك على المرّ إلا اللي أمر منه" .. يطوف ويسافر كل يوم إلى أولاده وأخواته .. يشدّون أوتار قلبه .. الأولاد فالأخوات فالأخوة فالخالات والعمّات .. والأهل والعشيرة الموزعون بين القدس وسعير، ومنهم من تشبّثت في بلاد الشتات الواسعة .. يزأر صدره .. يدخل الهواء ويخرج بصعوبة .. رحلة من المعاناة عبر المسافة الطويلة بين الأنف والرئة .. يجمّع مشاعره

المتفرقة ويطبعها في قاع صدره، ثم يلمس لها الأعذار عندما تتقطّع
أوصالها هناك فتتلاشى ويطغى عليها الألم .. وكلما أراد التجميع في
فترات الاستقرار، داهمته قارعة فجعلتها كالفراش المبثوث تنتظر رحمة
ربها .. "تمتم .. عفوك يا الله .. قلت: ما لها إلا الله يا "أبو حسن" ..
المهم أن يبقى وضعك مستقرّاً .. قال بحرارة ..
- أي استقرار وأنا أنتظر الموت ..
- حلّي أملك بالله كبير ..
- أملّي بالله كبير .. لا أملك من التفاؤل إلا ما أرجوه من الله وما
أنتظره عند لقائه .
- هذه وحدها كافية يا "أبو حسن" .. حسبنا الله ونعم الوكيل ..

نضال أبو عليا: "أربع ساعات"

الحكم مؤبد وعشر سنوات .. مسافة طويلة ينقضي العمر وهو في بداياتها .. همٌّ ثقيل يتجدد لا نهاية له .. جبل جثم على قلبه وحط رحاله على صدره .. كيف يتزحزح هذا الجبل وكيف يضع حداً لهذا السفر الطويل؟! يبدو أن المخرج أصبح وشيكاً، ونهاية هذا العذاب أصبحت قريبة .. خروج من السجن ولكن إلى أين؟! ما أن يضع روحه تحت رحمة ماكنة غسيل الكلى إلا ويشدُّ رحاله ويسافر .. يسافر باتجاه ما يخفى له المستقبل ويبدأ بالعد التنازلي السريع لفترة محكوميته .. قضى حتى الآن سبع سنوات ونصف من هذه الرحلة السوداء .. فما هي الفترة المتبقية؟! كم ستصبر عليه هذه الماكينة .. هذه العجوز الشمطاء التي تمارس عليه سحرها .. يهرب منها يوماً ثم تجده لا يطيق فراقها فيعود لها صاغراً .. تقبض عليه أنفاسه .. تلقي بشباك "برايشها" السحرية على شرايين حياته،

تنغرز في شرايين يده تارة وتارة أخرى في أعلى صدره .. تتمم وتعزم
ويعلو صوت عويلها .. تناشد الجن الذي يجري في عروقه مجرى الدم ..
أصبح لا مفر من تنقية دمه ثلاث مرات في الأسبوع .. قابع
في مستشفى الرمل منذ ثمانية شهور يعاني من الفشل الكلوي .. رجع
بالأمس من عملية الغسيل الساعة الثانية عشرة ليلاً .. استبد بنا القلق
والخوف .. عادة ما تستغرق عملية الغسيل أربع ساعات . خرج بعد
الظهر، سألنا عنه الممرضين، قالوا: إن هناك عطلاً في الماكينة .. كثيراً
ما تكرر هذا العطل .. ماكينة قديمة عفى عليها الزمن .. تذكر أنها
تعطلت في أسبوع واحد ثلاث مرات .. يبقى جزء من دم المريض
فيها .. تُرفع عنه البرابيش ويبقى قابضاً على شريانه كالقابض على
الجمر .. الدم مضغوط في شرايينه، وفي حالة رفع يده فإن الدم يشبّ
بقوة إلى سقف الغرفة .. يتم استدعاء الخبير .. يأتي بعد نصف ساعة
على الأقل .. كم يستغرق التصليح؟! حسب همة هذا الخبير .. ساعة،
ساعتين، أنت ونصييك .. لا تستطيع الأكل ولا الشرب ولا النوم ..
يتركوك معلقاً بمزاج هذه الماكينة الساحرة اللعينة .
سألناه صباحاً عن سبب هذا التأخير الطويل؟ كان شاحب
الوجه يبدو عليه التعب وكأنه قادمٌ من معركة بعد هزيمة ساحقة ..
قال والأسى يحيطه من كل جانب:

- كالعادة تعطلت المحروسة .. تأخر الخير عند قدومه وتأخر في التصليح .. كنت قد قطعت ساعة ونصف .. أكلت فيها بعض الحلويات حتى يتم إخراج سمومها أثناء الغسيل تنفخت كبالون هواء .. جلست انتظر، كانت الساعة تمر كسنة .. رأيت نجوم الظهر .. انتهوا من التصليح والتفاهم معها الساعة الثامنة .. أنهيت الثانية عشرة منتصف الليل .

ألقيت رأسي على "برشي" وارتيت في أحضان كوابيس الليل حتى لاح الصباح .. كانت أحلامي هذه الليلة مع الأموات .. رأيت أبي، أمي رحمها الله .. بصراحة أجد نفسي بفضل هذه الماكينة اللعينة أقرب إلى الموت من الحياة .. قلت له محتداً:

- يجب أن تطالب بتغيير هذه الماكينة؟! .. "هز رأسه وقال بمرارة" .. - منذ فترة طويلة ونحن نطالب .. يا رجل عندما يشدد بي الأمر ويأخذوني إلى المستشفى الخارجي هناك ماكينة محترمة .. تعاملني برفق.. ألكترونية، هادئة لا تغضب .. أرى فيها الحياة على عكس هذه التي تكثّر عن أنيابها وتريني الموت بأشكال متعددة .. أرى قبوري مفتوحاً وكأنها تدفعني إليه .. تلك الماكينة .. أستطيع النوم وهي تقوم بعملها على أكمل وجه .. أنام وأحلم أحلامي الرائعة هناك .. أجدني

أحياناً أتغزلُ بها .. يا روح قلبي أنت حياتي .. دمي فداك .. أسفح
دمي على أعتابها فترده نقياً طاهراً .. لا تضجر ولا تصخب .. لم
يحدث أن تعطلت مرة واحدة .. يلامس حناها شغاف قلبي .. أرى في
الغسيل عملية سهلة مريحة .. أناجيها وأترثم على صوتها الناعم ..
أنسى مصيبي .. أجد فيها ملاك رحمة تُربّتُ على كتفي وتشد من
أزري .. عندما أجلس معها أبني لي مستقبلاً زاهراً .. أتصور نفسي
وقد خرجت من السجن بصحة جيدة .. يتقبل جسمي زراعة كلية
برحابة صدر .. أعود إلى سابق عهدي .. شاباً نشيطاً مرحاً مشرقاً
بكل معاني الحياة .. أتزوج فتاة ناعمة وفيّة تشد عضدي وتعيني على
نوائب الدهر .. تقف معي وقفة هذه الماكينة الطيبة .. تنهد عميقاً
وتمتم .. الله كريم ..
قلت له مازحاً:

- ماذا "لو وقعت الفاس في الراس" .. ووقفت زوجتك وقفة الماكينة
الساحرة؟! أخرجته بهذا السؤال من دائرة أحلامه .. نظر إلى يديه التي
شوّهتها إبر الغسيل وقال بنبرة صارمة ..
- أطلقها بالمليون .. لا أستطيع تصوّر إنسانة تتبنّى مثل هذه المواقف ..
إنها ستكون مخفر شرطة وبيت الزوجية نظارة تذيقي فيها سوء
العذاب .. يا رجل ما أن تقع عيني عليها إلا ويقع الموت في قلبي .. لها

صوت مزعج لا يقل سوءاً عن صاحب أنكر الأصوات .. تتقلب صور
ذاكرتي السيئة في حياتي وأنا جالس في حضرتها .. أتذكر مغادرة أبي
وأمي لهذه الحياة قبل أن أجد طريقي في كنف رعايتهما الصافية ..
أتذكر الشقاء والتشرد .. صفعات الاحتلال .. الفقر والجوع
والحرمان .. الانتفاضة والقمع وقهر الاحتلال .. أتحسس عصي الجنود
وهي ترن على ظهري وبين كتفي .. الاعتقال وعذاب الشئبج
والتحقيق .. السجن ومعاناته الطويلة .. كل صور البؤس والشقاء
تتسلل إلى مخيلتي من خلال نظرات هذه الساحرة .. أتذكر بداية
وقوعي في هذه الكارثة .. يوم كنت في نفحة .. شهر ونصف وأنا
أراجع العيادة .. لم يكثرث المشعوذون في تلك العيادة بأعراض المرض
التي كانت واضحة .. أخيراً نقلوني إلى مستشفى "سيروكا" .. وجدت
أن هذه المعاناة الطويلة التي كتبوها بلغة سريانية غير مفهومة .. لخصها
المستشفى في ساعتين بكل دقة ووضوح .. فشل كلوي خمس وتسعين
بالمئة ..

تركته يسهب كما يحلو له، قلت: علّه يخفف قليلاً عن الأسى
الذي يملأ صدره .. تابع في عرض مشاعره وهو تحت رحمة الساحرة:
- أتذكر الدّم الذي رعف من أنفي وحالة الضغط المرتفع .. حشروني
في العيادة على إيقاعات شعوذاتهم اسبوعاً كاملاً .. انقبضت نفسي ..

غرفت في عرقي وتقيأت أمعاء بطني .. عندما أوشكوا على سماع أنفاسي الأخيرة، نقلوني إلى المستشفى، في الطريق رأيت قברי مفتوحاً.. كان الألم يدق علي أطنا به .. ضربني بأسلحته الثقيلة .. كنت كمنحلة طوّحت بها الرياح .. كان الفضل في إنقاذ حياتي واكتشاف مرضي لقرن موز .. أكلته فقامت قيامتي .. عندها ظهرت أعراض المرض لأنه غني بمادة البوتاسيوم التي تثقل عمل الكلى .. إنّه فكهتي المفضلة .. عدت إلى الماكينة .. هذه الساحرة أرميها بنظراتي القتالة .. أغضب ويجري الدم سريعاً .. أرجوها وأناشدها الرحمة .. "ذان من طين وذان من عجّين"، صمّاء لا قلب لها .. لا تعرف سوى شفت روعي مع دمي ..

حاولت إرجاعه إلى دائرة الأمل والنظرة المتفائلة:

- ماذا عن زراعة الكلية؟ .. هذه عملية سهلة هذه الأيام ..
- الدور طويل .. المهم أن يصلنا قبل فوات الأوان، فكما تعلم إذا طالت فترة الغسيل فإنه يصعب على الجسم تقبل الزراعة . خارج السجن المجال واسع ومفتوح، أما هنا فليس لنا إلا دورهم اللعين .. قدّمت عدة طلبات، وأنتظر الاجابة بفارغ الصبر .. آه .. متى أتخلّص من هذا العذاب المتكرر يوماً بعد يوم .

عَمَلُوا لَهُ عَمَلَيْنِ فِي كُلِّ يَدٍ لِيَتِمَكَّنُوا مِنْ وَصْلِ الْبِرَائِشِ ..
لَمْ تَنْجَحْ مَرَّتَيْنِ فِي الْيَدِ الْيَسْرَى فَتَعَطَّلَتْ وَاصْبَحَتْ كَلَّةً لَا تَقْوَى عَلَى
شَيْءٍ .. أَمَّا الثَّانِيَةُ فَنَجَحْتَ فِيهَا الْعَمَلِيَّةَ وَأَصْبَحَ يُوَصِّلُ مِنْ شَرِيَاكُهَا
بَدَلَ شَرِيَانِ الصَّدْرِ .. تَجِدُهُ أحياناً مُوصِلاً مِنْ يَدِهِ الصَّالِحَةِ وَالْيَدِ
الْأُخْرَى مَكْبَلَةً بِالسَّرِيرِ وَكَذَلِكَ رَجُلُهُ لِلضَّرُورِيَّاتِ الْأَمْنِيَّةِ .. رَجُلٌ
وَاحِدَةٌ هِيَ النَّاحِيَةُ مِنْ رَحْمَتِهِمْ!

لَوْ أَرَادَ شُرْبَةَ مَاءٍ لَمَّا اسْتَطَاعَ .. مَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَبْلُغَ أَرْبَعَ
سَاعَاتٍ بَلَا حَوْلٍ وَلَا قُوَّةَ .. عَمَلِيَّةُ الْغَسِيلِ تَجْرِي فِي غُرْفَةِ ضَيْقَةٍ
كَدُورَةِ الْمِيَاهِ، وَفِيهَا مَكْتَبُ إِدَارِي يَقُومُ عَلَيْهِ مُوظَّفٌ .. ضَاقَ بِهِمُ
الْمَكَانُ إِلَّا هَذِهِ الزَّائِيَةُ الضَّيْقَةُ ..

الْأَيَّامُ تَمُرُّ بِبَطْءٍ شَدِيدٍ .. حَبْسَةٌ دَاخِلُ حَبْسَةٍ .. بَرْنَامِجُ
قَاسٍ .. يَوْمُ الْغَسِيلِ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ .. يَصْحُو صَبَاحاً عَلَى هَمٍّ ثَقِيلٍ .. يَجْرُ
نَفْسُهُ كَمَنْ يَسَاقُ إِلَى حَبْلِ الْمَشْنَقَةِ .. يَحْتَازُ الْأَرْبَعَ سَاعَاتِ كَمَنْ
يَتَسَلَّقُ الْجِبَالَ الشَّاهِقَةَ .. جَبَلٌ وَرَاءَ جَبَلٍ .. يَصِلُ فِي النِّهَايَةِ إِلَى بَسَاطٍ
يَتَمَدَّدُ عَلَيْهِ مِنْهُكَ الْقُوَى .. يَعُودُ لِيَسْتَرِيحَ .. مَقِيدَ الْخَطَوَاتِ، مَقِيدَ
الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ .. يَحْسَبُ، يَجْمَعُ، يَطْرَحُ .. يَجِبُ أَنْ يَعِدَ .. كَمْ
كَاسَةٌ شَرَابٍ فِي نَهَارِهِ وَلَيْلِهِ .. يَجِبُ أَنْ لَا تَتَجَاوَزَ اللَّتْرَ .. الْإِفْطَارُ عُلْبَةٌ
لَبَنٍ، نَصْفُ حَبَّةٍ بِنْدُورَةٍ، نَصْفُ خِيَارَةٍ، ثَلَاثُ قِطْعٍ خَبْزٍ، عَشْرُ حَبَاتِ

زيتون .. بإمكانه بين الصبح والظهر إقامة وليمة على حبة تفاح ..
الغداء: ست إلى تسع ملاعق أرز مع مئة غرام لحم دجاج أو حبش ..
بين الظهر والمغرب حفلة على قرص أو قرصين بسكويت أما العشاء
فبإمكانه البحبحة في بيضة وخمسين غرام لبن، والخمسين الأخيرة له أن
يبدلها بخمسين غرام سمك لمرة واحدة فقط في الأسبوع ..

إحدى المرات قال له الطبيب معرضاً بإمكانك الأكل من
الأصناف .. كل ما تريد .. طار من الفرح .. استبشر .. وأخيراً
فرحت! ولكن الطبيب تابع كلامه: ملعقة فاصوليا، ملعقة بطاطا .. لا
تزيد عن ملعقة واحدة ..

سمحوا له بعد مطالبات طويلة بإدخال جلالية فضفاضة حتى
لا يضرب في البرابيش المزروعة في صدره .. شرطوا عليه بأن لا يخرج
فيها إلى حجرة الغسيل .. لبسها هي وشروطها واعتبرها من أهم
الإنجازات التي وصل إليها ..

يبقى الإنجاز الأعظم في حياته عملية الزراعة .. الآمال كبيرة،
الدور يدور، ومصيره أن يصله أحد الأيام .. يتسمع أخبار الزراعة
ونقل الأعضاء، متبرعين عرب تصل أعضاؤهم وتُزرع في أجساد
إسرائيلية .. تُعرض على شاشة التلفاز وتُحيى المشاعر الإنسانية

النبيلة.. إنقاذ حياة الإنسان فوق كل اعتبار .. أي إنسان عربي أم
يهودي ..

عاد ذات يوم من عملية غسيل شاقة .. غسلوا دمائه وغسلوا
أعصابه .. أضرّموا فيها نارهم عندما بلغوه بالرد الحاسم على طلباته ..
قالوا له:

- الزراعة مرفوضة في السجون الإسرائيلية .. نحن لا نتحمل أية
مسؤولية! .. انقبضت تقاطيع وجهه .. ضرب الأسى جذوره في
أعماق قلبه .. رأى أيام مستقبله العجاف .. البراري القاحلة والجبال
الجرداء .. الشمس الحارقة تصب شلالاً على رأسه .. الطريق وعرة
والهاوية بدت قريبة .. غابت شمس هذا المستقبل .. أظلمت الدنيا!!
وفي عمق الظلام لاح لي بصيص أمل .. وجّهت وجهي عليه .. علّقت
قلبي به، توجهت إلى من بيده ملكوت السموات والأرض .. توجهت
إلى من بيده: (وإذا مرضت فهو يشفين) فرجك يا رب ... يا رب .

فتحي زقوت: "سائق الحافلة"

تمّ تنقيط الخبر وإيصاله إلى "أبو تيسير" بالتقسيط المريح، نهاية المطاف وصل المضمون كاملاً، تيسير الشاب المقعد، يعاني من شلل نصفي منذ صغره، شارك المنتفضين انتفاضتهم بإمكانياته المتواضعة، كان يراقب تحركات الجيش من موقع استراتيجي يطلّ على مفترق طرق ويزوّد الشباب منه بالإشارات المطلوبة، تصوّر بأن الجيش لن يشك فيه نظراً لمأساته الصحية لكنهم، حملوه أخيراً هو وعربته وألقوه في الجيب العسكري .. اختلفوا في أمره .. قالوا ماذا نريد من هذا العطيل المعوّق؟!

سحبوه .. وضعوه على الحافلة .. كانت سيارة الجيب مسرعة.. دفعوه بأرجلهم وقلبوا عربته على الشارع .. قلوب قاسية لا تعرف الرحمة .. تدحرجت العربة وانكفأ على وجهه .. ارتضّت رحله.. نقلوه إلى المستشفى، وهناك وبعد رحلة طويلة من العلاج تقرّر قطع رحله نتيجة "الغرغرينا" التي تغلغلت فيها، هكذا تكاملت حلقات

هذا الخير، فأشعلت نيران الحزن في قلبه .. ذلك الولد الذي احتلَّ
أفضل المواقع في قلب أبيه منذ صغره .. كان يسيطر على مجامع
روحه.. فهو الولد الأول .. ولي العهد المنتظر .. ابتلي بهذا الشلل
الذي حرّمه من الاستمتاع بطفولته .. شاركه أبوه طفولته المشلولة ..
أعطاه جهده من أجل العلاج أو تحسين وضعه .. طارد به من مركز
إلى آخر، في غزة والقدس والأردن وسوريا .. حظي من أبيه بالاهتمام
المميّز من بين إخوته التسعة .. دخل السجن و"تيسير" في الثانية عشرة
من عمره، تركه لوحده في مصارعة الحياة .. ارتحل عنه بعيداً في
غياهب السجن رغم أنه بقي مزروعاً في وجدانه ولم يغب عنه لحظة
واحدة ..

كان لهذا الخير وقع الصاعقة على "أبو تيسير" .. لا حول ولا
قوة إلا بالله .. قطعوا رجله .. ألم تقتنع قلوبهم الحاقدة بشلله؟؟ عندهم
يحظى المقعدون باحترام عظيم .. عطاءات مميزة من الحكومة ..
علاجات مجانية وإعفاءات من الجمارك والضرائب، طوابير السيارات
تقف في الشارع كي يمر المقعد على راحته .. كم وقفتُ لمقعدين أثناء
عملي كسائق باص عندهم؟! أما هؤلاء الأنكاد فإنهم يندحرجون في
الشارع .. يا إلهي .. لا أستطيع مجرّد تصور المشهد .. العربة ترتطم
بالأرض وتتكسر على رأسه .. تتشقلب وتنكفي على وجهه .. تختلط

عجلاً بدمه .. دوّخت هذه المشاهد "أبو تيسير" .. ملأت رأسه
وأثارت عواصف اللوعة والحرقه على فراق ولده .. احتزنها وكبتها في
أعماقه منذ بداية الحبسة .. منذ أن طوته صحراء نفحة في طيّاقها ..
وسط حجرات ضيّقة أطبقت عليها الأسوار العالية والأسلاك
الشائكة .. سياسة القمع والقهر يتجرّعها كلّ لحظة .. يهون كل هذا
أمام ما جرى للولد .. أيُّ إنسان هذا الذي يُخرج منه هذا الضيع ..
أيمشي على رجلين ككل البشر .. أله قلب أم قطعة من الحديد
الصلب؟!

انطوى أبو تيسير على حزنه .. رجعت به ذكرياته إلى كل
صغيرة وكبيرة .. حلو الحياة ومرّها، قال في نفسه: "لقد تحمّلت
الكثير .. مصائب الواحدة تلو الأخرى .. أخرج منها بصير
واحساس .. أرفع رأسي وأمضي بعزم واصرار .. أمام هذه المصيبة
فلاني أجد نفسي صريعاً تحت مشاعري الملتهبة تجاه ولدي .. حمّي حبي
له التهمت كل المضادات الحيوية .. لم تنفع المسكّنات بل كلما حبت
زاد لهيبتها .. وجدت نفسي أدور في دائرة محورها "تيسير" .. كلما
حاولت الخروج عدت ووجدت نفسي في أقرب دائرة تدور رحاها في
حماه .. رحّلت نفسي من رغد الحياة طواعية .. كنت ميسور الحياة
صاحب دخل مرتفعاً .. لي سيارتي أجرة وعمارة من ثلاث طبقات لا

ينقصني شيء .. اخترت طريق المصاعب مضحياً بالغالي والنفيس ..
التحمت بالثورة ولبيت نداء الواجب .. كنت في الثالثة والثلاثين من
عمري .. فلم يكن الأمر حماس شباب أو اندفاعاً عاطفياً وإنما كان
خيار العقل والروح الثائرة، بعد ثلاثة عشر عاماً من التفوق في عملي
كقائد باص محترف في شركة إيجد .. قررت وضع عبوات ناسفة في
تلك الباصات .. فما معنى الحياة بوجود الاحتلال؟! أكل وشرب ونوم
وعمل .. وأين العمل؟! في دولة الاحتلال؟! ما هذه الحياة والناس
تنصبُّ على رؤوسهم لعنات الاحتلال، قالوا لي في الثورة أنت ربّ
اسرة كبيرة يكفيك الاهتمام بها وتنشئها النشأة الوطنية والتربية
السليمة .. صممت على خيارى ولم أستمع لنداءات القعود
والتراجع.. أما الأهل والأولاد فلهم الله .

اشتغلت بالزراعة .. زرعت العبوات .. اغتنمت فرصة عملي
والثقة التي بنيتها في نفوسهم على مدار سنوات طويلة .. حصدت
الكثير وأخيراً أصابني الحصاد بخيراته انفجرت عبوة أثناء زرعى لها
وكانت هناك ثلاثٌ تنتظر اللمسات الأخيرة في باصي الذي أعمل
عليه، رفعت يدي اليمنى فإذا بها خرقة مدلاة على عضدي .. حاولت
النهوض، وجدت أن ساقي مقسومة إلى قسمين من وسط الفخذ ..
بطني يتزف دماً .. حملوني على اعتبار أني من ضحايا الانفجار إلى

مستشفى "يخلف" .. قبل اجراء العمليات كانت المخبرات تقف عند رأسي، وصلوا إلى العبوات غير الجاهزة .. قبضوا على بصماتي، قارنوها مع بصمات سابقة كانت على قنبلة وضعتها سابقاً ولم تنفجر ..

هجموا عليّ بتحقيق عنيف الساعة العاشرة ليلاً وقبل إجراء أية عملية لي .. فقدت الوعي، ما لي أرى هذه المصيبة لا تلقي بظلالها كمصيبة ابني .. أيقظوني في الصباح .. صباح الخير .. أي خير؟! وجدت نفسي في صباح الإحرام .. يدي معلقة أمامي بعد أن قُطعت .. فخذني مربوطة بالحديد .. وبطني، متضامناً مع الأعضاء المقطوعة والمكسورة، يتأوه ألماً .. ضاعت منه زبائنه التي كان يزودها بمؤونتها .. الآلام الحادة تطلق النار على جسدي في كل مكان .. وجدت العيون السّاهرة على رأسي، أسئلة الاطمئنان .. قلقون على صحة المعلومات وتقسيم الميراث .. أوجد في الحياة أكبر من هذه المصيبة؟ .. أطرافك تُقطع .. رائحة البنج .. ضحك السلخ والذبح .. المحجوم الصاروخي من هؤلاء الذين لا يصبرون .. ماذا لو صبروا حتى ألتقط أنفاسي؟ إنها فرصتهم فليحسنوا استغلالها، نقلوني إلى مستشفى "برزلاي" .. استمرّ التحقيق، كانوا يريدون كل شيء، وأنا لم يكن لدي أي شيء .. سوى الشاهد الذي شهد عليّ من أهلي .. رجلي

المكسورة ويدي المقطوعة .. كان بإمكانهم وصل اليد التي كانت معلقة معي .. وجدوا أنّ القطع أسهل على قاعدة "اخلع ضرس الطاحونة واخلع وجعها معها" .. أمام صلابتي وعدم استجابتي لضغوطهم المرهقة استبد بهم الغضب .. رفع أحدهم رجلي وألقاها بعنف .. انكسر الحديد ووقعت البراغي .. أعاد الأطباء تجبيرها بالجبس، ما زلت أعاني منها لغاية اليوم .. العظم غير متطابق مع بعضها لبعض .. ومن "برزلاي" إلى الرملة حيث استمر التحقيق ستة وثلاثين يوماً، ومن هناك إلى مستشفى الرملة القديم حيث واصلتُ رحلة التجبير الوعرة خمسة شهور هانت كل هذه المصائب عدا هذه المصيبة الإضافية لولدي "تيسير" .

حاولوا مساومته على زيارة الأهل الأولى .. ما الذي دفع هذا الرجل الوديع المسالم الذي يجري وراء لقمة عيشه إلى هذا العمل؟! أجابهم بسهولة: الاحتلال .. ألقوا شباكهم .. "ما رأيك أن تعمل معنا ولك أن تعود إلى سابق عهدك .. حرام على حياتك" .. تساوموني على وطنيتي .. الحمد لله، لقد كفاني الله شر أموالكم السوداء .. لم أعمل الذي عملته من أجل المال .. قالوا، "لا تخف سنوفر لك الحماية.. قلت: أنتم لا تستطيعون حماية أنفسكم أتدرون لماذا؟! لأنكم احتلال!! إذا اردتم الصراحة بشرط أن لا تغضبوا؟! .. قل ما تريد ..

أول حاجة سأقوم بها بعد خروجي من السجن: أن أطخّك لأنك كنت السبب في قطع يدي؟! تلقيت لكمة في وجهي .. تركتهم في حسرتهم وخرجت .. "عاد بأحزانه إلى ولده مرة أخرى: "أية مصيبة هذه التي ألّت بولدي .. لم أكرث بمصيبة الحكم .. خمس مؤبدات وأربعين سنة .. حملتها على كتفي مثل السلام عليكم .. عدت إلى السجن أستقبل المهنتين وأشدّ على أيديهم قبل أن يشدوا على يدي .. جاءني أبي وأمي على شيك الزيارة .. بعد أن قطعوا الحدود .. هم في رفح المصرية وأنا في رفح الفلسطينية .. كانت الأخبار تصلهم أولاً بأول .. تصوروني "كومة لحم في قفة" .. لم يصدّق والدي عندما رأي.. طلب مني أن أمشي أمامه .. مشيت وضحكت .. أراد أن يتلعي بعينه .. يقتلني من خلف الشيك .. يضعني في قلبه ويسير .. أمي غسلت وجهها بدموعها .. كانت نظراتهم السريعة تقول لي: اخلع ملايسك نريد أن نراك كما ولدناك .. اطمأن والدي على خصوبي .. ابتسم ابتسامة قوية ارتجّ لها جسدي .. هذه زيارة نوعيّة لوالدي كشفت عن حجم مصيبي .. وهناك خبر عندما نقل لي خبر زواج ابنتي بعد أكثر من عشر سنوات من الحبسة .. وصف لي مشهد إنابته عني في زف البنت لعريسها .. قال لي: تمنيت ألها لو لم تخلق،

خير من هذا الموقف .. تتوالى المصائب ولكنها دون مصيبة ولدي ..
تحملت الكثير، أما هذه فقد غمرتني في أحزانها" .

حاول إخوانه في هذا السجن المنفي التخفيف من حدة هذا
الاكتئاب .. يتناوبونه في التفاعل والزيارات .. ذكّروه بمواقفه الصلبة..
قدرته على التحديّ وتجاوز العقبات، المثابرة والروح النشطة، الجبل
الذي لا يهزه الريح .. قالوا إن الكف لا تناطح المخرز، ولكنه كان
كفّاً ناطح مخارز كثيرة .. مخرز الأسر، مخرز الإصابة وآلامها، ومخرز
إدارة السجن التي تحاول غرسه في أجساد الأسرى كل وقت وحين ..
ذكّروه بمواقفه في إضرابات الطعام .. كان من قادة جبهة حرب
الأمعاء الخاوية، ومن صنّاع القرار .. إحدى المرات بعد خذلان
الاتفاقيات للإفراج عن الأسرى .. قرروا الإضراب .. تراجعوا، ولكنه
أضرب لوحده، نقلوه إلى عسقلان ثم السبع، صباح أحد الأيام بعد
حوالي خمسة عشر يوماً من تلقيه خبر ولده، كان متوجهاً لتناول طعام
الفطور .. أسفرت أحزانه عن ضربة قاصمة، شعر بأن صخرة تنزل
عليه من السماء .. ارتطمت في صدره .. صاح في الشرطة .. افتحوا
الباب، أذهلت صرخته المحترقة الجميع .. كانت كصرخة القتل، صبّ
فيها أحزان عمره .. وجد نفسه على بوابة العيادة .. ضرب الباب
بشدة .. انقطعت أنفاسه، كانت كأنفاس خيل ضابحة خرجت على

التوّ من سباق طويل، من حسن حظه كان الطبيب موجوداً .. جسّ نبضه فوجده بلا نبض، زوده بالأكسجين والإبر المطلوبة، طلبوا له سيارة إسعاف مع طاقم العناية المركّزة، طاروا به على جناح السرعة إلى مستشفى "سيروكا" .. وللحق يقال حظي هذه المرة بعناية فائقة وكأنهم يريدون التعويض عن الإهمال الفظيع في بداية أمرهم معه عندما قطعوا يده ولم يحسنوا تجبير رجله .

اشتدت ضغوطات الشباب في السّجن .. صعدوا الوضع وطالبوا بإلحاح .. ماذا جرى لأخيهم؟ واصلت إدارة السجن الاتصال مع المستشفى .. قالوا إنه في غرفة العناية المكثفة .. قد يصل من هناك خبرٌ محزنٌ .. وضعه في غاية الخطورة .

أصابته الجلطة في المستشفى ثانية وبشكل أشدّ، كان بطنه يصعد باتجاه حلقه يطغى البطن على الصدر فتخرج دفعات الدم متدفقة من فمه وكأن شرايينه الداخلية قد تفجّرت .. الموت يقترب .. يدق أبوابه بعنف .. الجهود متواصلة .. الأجهزة تصفّر .. تعلو الموجات فيها وتهبط .. الإبر تتلاحق .. تُفرغ حملها وتفسح المجال لغيرها .. كان معه في نفس الغرفة اثنان في حالة موت سريري .. تراهما عيناه في لحظات الصحو ثم تذوي في عالم الغيب، وهرب من نفس المصير، شيئاً فشيئاً بدأ يستوعب ما يجري .. ثمانية أيام وصدره

في حالة غليان، كان أرضاً لمعركة ضارية تجالدت فيها الجيوش بسيوفها الحادة .. عادت إليه روحه وبدأ يشعر بالتحسن .. بدأت الشمس تلوح في الأفق بعد عاصفة ثلجية هوجاء .. إعصار شديد دمّر الأخضر واليابس .

نقلوه إلى قسم القلب بعد أن خرج صاحبه من الغرفة محمّلين على الأكتاف، حدّدوا له طعامه وشرابه ومنعوه من التدخين .. الرجلين مكبلتين .. ويد مكبلية في السرير أما اليد الثانية فكانت تتعارك مع إبر العلاج .. إثنا عشر يوماً تجمدت فيها أجنابه .. أصبح همّ هذا القيد أشد من همّ السكنة القلبية والشریان المغلق الذي أخبروه عنه .. رغم هذه المعارك الضارية إلا أن مشهد "تيسير" وهو على عربته يُدفع بأرجل الجنود من حافة الجيب، لم يغادر هذا المشهد رأسه، وبقي مستقرّاً في أعماق قلبه، على الرغم من كل ما جرى لهذا القلب المتعب بالهموم .

بعد أخذ وردّ مع الأطباء وشرطة الحراسة، سمحوا له بالمشي مكبلاً مع شرطي مسافة قصيرة، في الممر الداخلي .. وجد صحته تتحسن، طالب بإعادته إلى السجن، كان يشعر وكأن نبة غرست في أرض لا تتناسب معها ..

غربة تضغط على أنفاسه .. النظرات تلقي بتهمها عليه جزافاً.. إرهابي يتلقى العلاج ويتمائل للشفاء .. حملوه مع آلامه إلى مستشفى الرملة .. شعر وكأنه يولد من جديد خرج من أصعب مصيبة ألمت به .. لم يدر أيُّ المصيبتين أعظم .. دحرجة ولده أم جلطة قلبه؟! عاد إلى حياته يجدّ عزائمه ويشحذ همته من جديد .. وجد نفسه في معترك الحياة عند أول زيارة .. أخبروه عن زواج ابنته الثانية.. الخبر المفرح المبكي هكذا هي الحياة وجهان لعملة واحدة .. تتناوب كتناوب الليل والنهار .. الولد الثاني يبحث عن شريكة حياته.. بنت تبدع وتتفوق في النشاط المنهجي واللامنهجي .. فداء آخر العنقود، عمرها عمر الحبس، ثلاثة عشر عاماً، سألتها عن العيد فقالت:

"مفيش طعم للعيد بدونك!!" وهل جرّبت العيد بوجودي؟! عادت سفينة حياتي تمخرُ البحر وتواجه التيار .. قلت لنفسى: كما تحمّلت الكثير من أجل فراق حياة الدّعة والقعود عليك أن تواصل هذا الحملَ مهما كلف الثمن .. صحيح أنني كنت متحملاً كل ما هو على حسابي، فجاءني من يُحمّلني ما هو على حساب ولدي "تيسير" فينضمّ إلى طريقي ويحمل معي هذا الحمل الثقيل .. إنه لم يعد صغيراً، ما زلت تنظر إليه وكأنه في عمره عند بداية حبستك، أصبح الآن رجلاً مثلك

وقد يلهمه الله القدرة على أن يحمل أكثر منك .. ما يدريك؟! . وجد
"أبو تيسير" نفسه في معترك حياة من نوع آخر .. حمل على عاتقه
مسؤولية خدمة ورعاية المرضى .. هؤلاء القابعين في مستشفى الرملة..
وكأن أيدي القدر أهلتهم لهذه الرعاية .. تجربته مع ولده المريض إلى
تجربته في الإصابة والعمليات الجراحية التي أجريت له، وتجربته أخيراً
مع السكتة القلبية .. وشريان الحياة المغلق، أنظر إليه وكأنه يقود مثل
الحافلة التي كان يقودها خارج الأسر، هذه الحافلة زبائنه فيها مرضى
الأسر في سجون الاحتلال .. وهو يعبر بهم طريقاً مليئاً بالحوادث ..
حوادث البيروقراطية والتأجيل الفظيع لإجراء العمليات الملحة،
والفحوصات الطبية، حوادث الأشهر الطويلة التي تستغرق عمليات
العلاج .. القيد في أسرة المستشفيات والحوادث النفسية التي تضغط
على الصدور .. سنة الحياة أن نقودها دائماً نحو الأفضل بكل عزم
 وإصرار، وأجرنا على صبرنا من الكريم بلا حساب .

علي عباس البياتي: "عراقي في سرداب السبع"

التقيت به في مستشفى الرملة.. لم أره ولم أسمع أخباره منذ ست سنوات.. كان أبو نبيل غارقاً في عالم النسيان.. قابلاً في ذاك السرداب الذي قسّموه إلى حجرات ضيّقه "إكسات".. كل "إكس X" يتقاسمه إثنان في بئر السبع قسم (٨) يشوي في عالمه الزّاحر بالذكريات، يُسافر بعيداً في الزمان والمكان.. يصل إلى بغداد بنخيلها وأهمّارها، بماذنها وأسواقها، بمعالمها التي يملؤها التاريخ بأنفاسه.. يزور المشاهد المعمّدة في روحه، ويعود إلى الثّغرة التي يربط فيها.. الحجرة الضيّقة.. حشرت له العالم بقبس يسير من الضّوء والهواء.. ضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم تعد تفسح له إلاّ تفصيلاً على طول قامته.. ويسافر في الزمان من طفولته في بغداد إلى بداية شبابه في بيروت، ثم يُكمل الشباب وبداية الكهولة في عالم السجون الضيّق..

أول ما نسأل عنه هو صحّة الرجل.. فالشيب الذي جلّل شعر رأسه ولحيته قد يخفي وراءه المفاجآت.. وسنود السجن تُغيّر ولا

تتغير.. تأكل من أعمار سكانها ولا تشبع.. سمعت أزيز صدره وهو يتنهد قبل أن يجيب.. ابتسم ابتسامة حاول أن يريني فيها شبابه وقال: الحمد لله على كل حال.. تذكر عندما كنا في عسقلان العام (٩٣) لم أكن أعاني من شيء سوى التهابات في الكلى ومشاكل انسداد البول.. تعايشت معها منذ بداية "الحبسه".. أصبحت من أعز أصدقائي.. بعد خمسة عشر عاماً استطاعوا أن يشخصوها.. بعدما جربوا عليّ كل ما لديهم من أدوية.. قالوا لي أخيراً: بأنّ الكلى عندي ليس في مكانها الطبيعي.. قلت مستغرباً: خمسة عشر عاماً" منذ بداية اعتقالك سنة (٧٩)، ولغاية (٩٤) وصلوا إلى تعيين سبب معاناتك من آلام الكلى.. لا أكاد أصدق أذني.. قلت: خمسة عشر عاماً أم يوماً .

- خمسة عشر عاماً.. ومنذ خمس سنوات والتنقيب جارٍ عن أمراض أخرى، صبرتُ عليها كثيراً وكان لا بدّ في النهاية من الكشف عنها . أذكر أنّ الكلى لم تكن تكثرث بها كثيراً.. أدت لها ظهرك.. واصلت نشاطك على أكمل وجه.. كنت رياضياً متميزاً .

بالطبع فأنا عسكري قبل كل شيء.. لم آت من أجل نزهة أو "شمة هوا..". لقد أكلت معسكرات التدريب من أجانبنا.. ما زلت أعاني من شريان البلاستيك المزروع في ساقي منذ كنت في بيروت قبل نزولي دورية إلى فلسطين، كتب الله لي الوقوع في الأسر.. واصلت

نشاطي بمهمة عالية.. حافظت على صحي وأعدتها إلى صوابها بعد أن
تضعضت أثناء فترة التحقيق العسكري الضعيف الذي أذاقونا فيه
الموت مراراً ...

أسمع لصدرك صوتاً... أنفاسك تقطع كلماتك ولا تدعك
تكمل جملة .

منذ خمس سنوات داهمتني عدّة مرات أهمها الأزيمة التي
أشعلت النار في صدري أحياناً أشعر وكأنّ ملك الموت يقبض على
روحي وينتظر إذن ربه.. أخيراً ظهرت علينا آثار القمع والغاز الذي
كانوا يعموننا به.. وعندي آلام في المعدة وضعف في العيون والبواسير
كفاك الله شرّها.. وأخيراً، وإن شاء الله آخراً السكري الذي اجتاحني
بعد الاضراب الأخير السنة الماضية .

إذن تحتاج إلى (أفروهل) .

هكذا قالوا لي.. عندي عدة فحوصات جئت من أجلها إن

شاء الله .

أكملت العشرين عاماً "أبو نبيل"؟!

في شهر ١١ القادم ٩٩/١١/١٨ .

كيف مضت العشرون عاماً؟ "هزّ رأسه، بدت عيناه وقد

غرقت في بحر ذكرياته.. يصارع الموت ويسبح عكس التيارات

الجارفة.. البحر يجرّه بشدة نحو الأعماق السحيقة وهو يجذّف بكل ما أوتي من قوة.. تنقضي عاصفة وتأتي أخرى.. تأتيه الأمواج العاتية من كل مكان فيعلّق عليها.. يمتطيها قبل أنّ تمتطيه.. يهزّ رأسه بعد كل موجة. يتساقط عنه الماء والعرق - يبتسم للبحر والحياة". ماذا أقول عن العشرين عاماً أحدثّه بالتفصيل المملّ أنه سجين مثلي ولن يطبق سماع وتفصيلات السجون؟ أحدثّه عن مسلسل مقارعة السّجان الذي لن ينتهي ولو بقينا على الجلسة هذه عدة أيام؟ أحدثّه عن علاقات الناس في السجون، الفصائل والأفراد. كيف كانت قبل تبادل سنة (٨٥) وكيف أصبحت بعده؟ كيف كانت قبل أوصلو وكيف أصبحت بعده وبعد تداعيات الافراجات والاحباطات؟ أحدثّه عن تجربتي في عسقلان أم في نفحة أم في جنيد أم في السبع؟ عن رحلتي مع المرض وعلاجاتهم التعيسة؟ عشرون عاماً أتيه ولا أدري من أين أبدأ .

" لاحظت شروده من هذا السؤال فحدّدت سؤالي " .

أخبرني عن أبرز ما ترك فيك من أثراً بليغاً؟ "انطلق لسانه بسرعة": زيارة أمي.. يا لها من زيارة ما زال وجداني يناطح السّحاب بها.. ما زالت أمي أمامي منذ ذلك الوقت.. منذ سبع سنوات، تصوّر لم يسمحوا لي بزيارتها إلّا بعد ثلاثة عشر عاماً.. كانت تسافر من بغداد إلى الأردن فيمنعونها من دخول فلسطين تستقصي أخباري من

الأردن.. تذرف دموعها وتبعث سلاماتها وتعود.. توفي أبي في حادثة ملجأ العامرية أثناء القصف الأمريكي على بغداد العام (٩٠) - جاءني الخبر بعد ستة شهور.. وكانت زيارة أمي بعد ذلك بسنة ونصف تقريباً عندما وصلت شيك الزيارة.. ورأيت العباءة السوداء التي تجلّل روحها الطاهرة.. طار عقلي .. نسيت نفسي صحت! هي أمي! هي إمّي! هجمت على الشيك وغرقنا في دموعنا.. رغم أني كنت مقررّاً على نفسي بأن لا تتزل دموعي.. بعد أن هدأت العاصفة.. لم تقدأ خفّت قليلاً وعادت.. انفجرت القلوب بأحزانها المخزونة.. أخرجت كل رصيدها .. أسأل ما هي أخبار عمي فلان- توفاه الله.. أخبار عمتي فلانة؟ توفاه الله.. أخي.. ذهب إلى الحرب ولم يعد.. زيارة شُحنت بأخبار الوفيات ..

كانت زيارة رأيت فيها شيخوخة أمي - ذوت نضارة وجهها وغاب نور عيونها في ثنايا السنين التي تركت بصماتها بوضوح خبت فيها شمعة حياتها وهي ما زالت في الحياة تُعارك الموت وتصبر نفسها.. رأت أمي شبي، رأت عجزتي وراء هذا الشيك المقيت فلم تتحمّل.. ضجّت بالبكاء.. حاولت معها بدموعي الصامتة ولم أفلح - توسّط أحد أفراد الشرطة لضابط الأمن بأن يسمح لي بالسلام عليها دون شيك، رفض بشدّة، طلب منه تمديد الزيارة ورفض.. ساعة بكاء

انقضت بسرعة لم ندر كيف نبدأ أو من أين نبدأ؟! ضاعت الأفكار
من رؤوسنا وتردّدت الكلمات في حلوقنا. قلتُ: وبعد ذاك لما لم تعد
لزيارتك مرّة أخرى؟

منعوها، تأتيني أخبارها عندما تأتي إلى الأردن من أجل
السؤال عنيّ أو عندما يُعتصم على باب الصليب الأحمر في الأردن
عندما تسمع بإضراب في السجون، في إحدى المرّات أخبرونا بزيارة
الدوريات.. حضّرت نفسي.. هيأت لأمي، تعلم كيف تكون هذه
التّهيؤ.. ترتيبات نفسية ومعنوية.. هيجان لعواطف اللقاء مع ست
الحبايب، ما تبقى لي في هذه الحياة، المهم وصل الزّوار، نزل الشباب
ونزلت معهم.. تعانقت الأصابع والثقت الأرواح، تذكرت ندائي
الأول "هيّ أمي" - لم أجدها - علق لساني في حلقي الجافّ، خرج
قلبي من صدري.. تدحرج عند قدمي، قالوا لي: لا يوجد لك زيارة..
برميلاً من الماء المثلج ألقيه على رأسي، وددت لو أقتل هذا اليهودي
الذي قال هذه الكلمة اللعينة.. إنّ هذا غير كافٍ لردّ اعتباري، عدت
أدراجي أحمل أحزاني حيث كنت قبل أسابيع طويلة.

لم تحاول الاتصال التلفوني وتعلم أنهم سمحوا للدوريات
بالاتصال ولو مرّة كل سنة.

حاولت، قدمت طلبات كثيرة قالوا لي: مستحيل أنت من العراق من دولة معادية- قاتلهم الله- إلى متى؟

بعد أن تنتهي المؤبد يسمعون لك؟ ألم يشبعوا من العشرين عاماً؟! عاد إلى بحر العشرين عاماً يحدث نفسه من جديد. أحدثه عن آلامي التي تقاطعت عليّ من كل حذب وصوب، أحياناً أراها قد مرّت سريعة خاصة عند أيام الشباب والنشاط والمواجهة- كان القمع يزيدنا عزمًا وتصميمًا، يشعلون نار التحدي فتحرق كل سياساقيم تحت أقدامنا. في سنة (٩١) قمعوننا مرّتين متتاليتين، الغاز والرصاص المطاطي، كسرنا الأبواب وحطّمنا كل شيء، ارتوينا غازاً حتى النُخاع، حققنا بعض ما نريد ولم نخسر شيئاً، لم يكن هناك ما نخسره.. المواجهة والتحدي تنسيك همومك.. تشعر بقوتك عندما ترعى عدوك رغم ميزان القوى الذي يميل لصالحه، يتهاوى ويبحث عن حلول الوسط، تشعر بالعزة وحلاوة النصر.. أحياناً أخرى أرى اللحظة الواحدة وكأنها قنطار من السنين تلقي بثقلها على رأسي خاصة تلك اللحظات التي يختلف فيها، الأسرى ويدورون حول أنفسهم- أصدقك القول.. مرّت السجون بأيام سجّل عليها بسواد اللاوعي وتقهقر الروح الأخوية أمام الزحف الأسود للبلديات والتميز بين الداخل والخارج أو بين الجنوب والشمال أو بين فصيل وآخر،

شَيَّتَنِي هذه الأوقات القاسية ولكن الحمد لله كلَّ مرّة كان يعود فيها الوعي للسيطرة على الوضع، واليوم إذا قارناه بالأمس فالأمس أفضل من اليوم، يوجد حالة من الترهّل والإحباط لا بدّ من الوقوف لها ومحاولة العودة إلى الجِدِّ والاجتهاد، قلت له بعد أن أوقفتني هذه الكلمات الحريصة. ودقّت ناقوس الخطر في روعي: لم تثنِ عزمك هذه الأمراض التي ألّمت بك، ما زالت آمالك كبيرة؟! .

بالتأكيد لأنّ الروح ما زالت على حالها، كان فضل الله عليّ عظيماً.. فتح الله عليّ باب الدراسة، قرأت الكثير. وكان للدراسات الدينية والروحية الأثر الكبير على مسار حياتي وعلى قوة معنوياتي.. حلّقت بروحي عالياً، المرض يصيب الجسد ولا شكّ أنّه يؤثّر، ولكن بفضل الله عندي المعنويات ما يغطّي آمالي وطموحاتي ويزيد. سرحت في عالم هذا الرجل، بالتأكيد قد أخفي الكثير... على عادة الرجال الذين يعملون في الخفاء وفي العلن يتظاهرون بأنهم لم يقدّموا شيئاً.. أخفي عني المعركة البحرية المتميزة التي اعتقل على أثرها، دورية بحرية فدائية اخترقت دفاعات العدو وأصابته فيها مقتلاً، نسي نفسه في ذكر الشهداء.. عدّد لي الشهداء الذين التقى بهم.. ما زالوا يظّلون روحه بأرواحهم... حتى أنّ أمراضه التي قطعته بآلامها ليل نهار، مرّ عليها مرّ الكرام.. المماثلة المميّنة في العلاج وتشخيص الأمراض أزعجته،

ولكنها لم تفلّ من عزمته.. طلبوه لتصوير المعدة ثم بلّغوه بإعادته إلى
سرداب السبع.. سأل عن الفحوصات الأخرى التي وعدوه بها..
سيأتي وقتها، متى؟! عندما يأتيك الدّور.. حباهم طويلة ونفسه أطول
والله المستعان على ما يجرمون .

علاء الدين البازيان: "زيارة إلى بحيرة طبريا"

انتهت استعدادات الزيارة .. وضع لمساته الأخيرة على تجهيزاتها، وقف على باب غرفته ينادي كي يفتحوا له .. بدأت تحضيراته قبل الزيارة بأربع وعشرين ساعة .. شراء الهدايا المتواضعة .. ترتيبها والكتابة عليها .. أكتب يا "أيمن" هذا القلم لابن أخي محمد وهذا لأخته .. أكتب عليه - إهداء إلى ابنة أختي الحبيبة "أسماء" .. من عمك علاء البازيان - أبو كمال - يتساءل أيمن:

- دائماً تفضّل "أسماء" وتميّزها عن غيرها؟!!

- قلت لك أكثر من مرة .. إنها ليست مجرد ابنة أخ .. إنها صديقة عمري، تملك زمام قلبي وتنبؤاً عرش مملكتي .. إنها أعزّ حبيب على نفسي ..

- هنيئاً لها يا عمّ ..

يحاول "أبو كمال" في بناء مشروعاته أن يعتمد على نفسه ..
يخدم نفسه بنفسه دون مساعدة أحد .. أما إذا اضطر فإنه يحاول
حصرها في أضيق نطاق .. أن تكون أسيراً فإنه يعني أن تتقيّد حركاتك
وسكناتك إلى أبعد حدود .. فكيف بك إذا كنت أسيراً وكفيفاً في
نفس الوقت، جرّب ذلك لمدة خمس دقائق .. أغمض عينيك حاول أن
تسافر من "برشك" إلى دورة المياه لقضاء حاجتك .. إحسب معاناتك
وعدّد حوادث الطرق التي سوف تدهمك في هذا السفر الطويل .. عد
مكانك واحمد الله على أن حباك بالأسر وجعل عينيك حرّة طليقة
تلتقط كل يوم بلايين الصور الملونة والمحمّضة في مختبراتها العملاقة .

يخلق ذهنه لوحده .. يساعده أيمن أو أحد الإخوة المتواجدين
في تحديد حدود السوالف والشوارب .. يصبح على حمام دافئ يختار له
الوقت المناسب .. يخرج الرياضيون ويستمر النائمون في نومهم ..
يغتنم "أبو كمال" الفرصة كي يلج إلى الحمام، يحكّ عقله قبل أن يحك
جلده .. من سيزورني اليوم؟! أسماء ..؟! الوالده ..؟! مجموعة
استفسارات إياك تنسى أيّ منها يا علاء؟!!

أسماء تريد قصة، تريد نكتة .. أخباري لا جديد فيها، فمنذ
أربعة عشر عاماً وأنا على نفس المنوال، أقارع بين جدران السجن،
أتفاعل مع الأخبال السياسية والأوضاع الاجتماعية التي تحيطني .. أسمع

الأخبار والتحليل .. الأسرى يثرون كل خبر ويتناولونه من أبعاده ...
أسمع وأسمع ثم أدلو بدلوي .. الأخبار راكدة لا جديد فيها .. تختصر
الزيارة شيئاً فشيئاً .. ينتهي الحمام وتبدأ رحلة انتقائي الملابس الخاصة
بالزيارة .. يتطلب الأمر فحص الطقس والانتباه، في الأخبار، إلى
النشرة الجوية .. التهيئة النفسية والجسمية تمضي على قدمٍ وساق .
سيناريو الزيارة تكتمل حواراته .. اللباس، المقاس المناسب،
الهدايا على يمينه مرتبة ترتيباً دقيقاً، شذى عطره يفوح من ثنايا
ملابسه.. وقف شامخاً برأسه إلى أعلى .. تعمم بنظارة سوداء كبيرة
غطت نصف وجهه الأعلى .. غابت حبيبتاه في أعماق بحر لجي ..
بدت صلعتة البيضاء وقد استضاءت بشعرها الخفيف الأبيض اللامع،
كأنها طائفة تتأهب للإقلاع .. تافت إلى سماء الحرية، ولم تتمكن إلا
من قبس يسير تتطلع منه إلى العالم الخارجي عبر هذه الزيارة القصيرة .
فُتح له الباب، خطى خطواته القصيرة والواثقة باتجاه زيارة
الأحباب، سأل وهو يحاول أن يلمس درجة الحرارة وأشعة الشمس في
وسط الظلام الذي يسبح به:
- كيف الطقس يا أيمن؟!
- جو ربيعي دافئ ..

- أشعر بنسمة برد تخترق حصوني .. إرجع وأحضر لي السترة الشتوية.. غرفة الزيارة باردة .

هزّ أيمن رأسه .. تراجع خطوات إلى باب الغرفة .. طلب السترة .. عاد إليه وعلّق:

- هذه علامة الشيخوخة، أبا كمال .. عظامك لم تعد تحتمل البرد .

- "الدفا عفى" يا أيمن .. يا الله هيا بنا .

- ها قد وصلنا الدرج ..

يتحسّس بقدمه الدرجة الأولى، هبط عليها ببطء ثم تابع بخفة وحيوية تعبّر عن غبطته بالزيارة المنشودة .. وقف على الباب الأوّل ينتظر .. ضغط له أيمن على الزرّ .. رد صوت السماعة .. إلى أين؟ .. إلى الزيارة؟

فُتح الباب وتابع نزول الدرج .. وقف عند استراحة الباب الثاني ثم واصل . وقف عند نقطة التفتيش .. فتّشوه مع هداياه، خلطوا له في كلّ ترتيباته .. فتح الباب قبل الأخير حيث غرفة الانتظار .. عاد أيمن أدراجه بعد أن تركه فيها .. انتظر اكتمال التّصاب، ثلاثون أسيراً في الفوج الواحد .. ثلاثون تمخر أصواتهم وأصوات زائريهم غرفة الزيارة .. يعلو ضجيجها ويخترق صخبها النفوس .. تذوب كلمات الأحباب في الأذان وبالكاد يتسنّى لها الوصول إلى القلب .

وجد "أبو كمال" نفسه وجهاً لوجه أمام "أسماء" وجدّتها ..
الأم وحفيدها .. الحبيبة الكبيرة مع الحبيبة الصغيرة .. تشابكت
الأصابع .. تلاشت القبلات على الشيك الحديدي الذي لا يدرك فقه
القلوب .. تبادلوا السلامات المعهودة، الابتسامات البرّاقة والكلمات
التي تُذوّب القلوب وتُحترق حصونها المنيعَة .

مشاعر فرحة تشتعلُ من مرارة اللقاء ما تلبث أن تكتنفها
المرارة وحزن الفراق .. نشوة عارمة تنتظر ساعة نضوجها القريبة ..
تنضج فيقطفها السجان بمنجله الأسود .. يدور به على عنق الأسير
ويعيده إلى سلاسل قيده .

كانت "أسماء" قبطان هذه الزيارة .. مسكت بدقّتها بحزم
وشرعت تحدّث بطلاقة ..

- "أخذنا عمّي رحلة .. رحلة بعيدة كثير .. إلى بحيرة طبرية، مَيّ
وشجر وسمك، لعينا وسبحنا .. شوّينا اللحم والدجاج، أكلنا وشبعنا،
شربنا الكولا، رحنا طريق الغور، مليانة برائحة الورد وزهر البرتقال ..
يا الله يا عمي ما أجمل فلسطين .. الجوّ دافئ وحلو كثير .. يا ريت يا
عمي لو كنت معنا" .

غرق "أبو كمال" في ثنايا كلمات حبيبته الصغيرة .. هذا
الوجه الصغير الذي يتأرجح بين جدائله يشع على عالم الظلام الذي

يطبق عليه من كل جانب .. كان يرى حُزماً من الضياء تنطلق من هذا الوجه البريء فتصيب قلبه .. يتناثر الضياء فتبرق دنياه .. تتكاثف السحب، تهطل أمطار ذكرياته العزيزة وتترل جبال الثلج والبرد .. السوق الضيقة، هرايس، حلويات، قطايف، فوانيس رمضان، ليالي القدر وبريق الملائكة التي تعانق أرواح الصالحين، النشاط المدرسي، فتوّي الشرسة التي كنت أتميز بها عن غيري .. كنا نتغلب على فرق الحارات المجاورة .. نفوز بعضلاتنا ونفرض النتيجة التي نريدها، اشتعل شبابي وتعاضمت فتوّي، كانت الحياة واسعة، جميلة، تلبس أحسن حلبيها خاصة هذه الأيام الربيعية .. تنعش القلب بدفء جوّها وجمال طبيعتها الخلابة .. الرحلات المدرسية كانت بداية الربيع، يغادر إلى النبي موسى، أريحا، البحر الميت، طبريا؟! لا لم أصل إلى ما وصلت إليه "أسماء" .. تستمر في حديثها المضيء، تضيء عليّ عالم ذكرياتي القديمة.. تحضره على طبق من ذهب، لا أريد أن أتذكر تلك اللحظة التي فقدت فيها بصري .. تقابل الصفّان واحتدمت المعركة .. صف صور شبابي وعالمي المنير، مقابل صف سحني وعالمي المظلم .. أجد أن عالمي القديم يتلاشى أمام زحف عالمي الجديد، رغم كل محاولات الانعاش من حبيبي "أسماء"، ما زلت أسمع دوي الانفجار .. انفجرت العبوة التي كنت أعدها بعد التحاقني بصفوف الفدائيين .. غبت عن

نفسى وعن الدنيا .. وجدت نفسى ولم أجد الدنيا .. ناشدت حبيبتى وأنا قايع على سرير الموت بعد أن اجتزت عدة عمليات جراحية .. لم تسمع مناشداتى ولا توسلاتى لها .. وجدتها قد هجرتنى إلى الأبد .. لم تترك لي كلمة وداع .. لم توصيني بنصائحها وإرشاداتها التي لم تبخل عليّ بها طيلة أيام حياتي معها .. أصبحت كمن يريد أن يتعرّف على تفاصيل حاسوب الكتروني دون أيّ دليل أو معرفة مسبقة .. غرقت في الظلام وطارت بي رוחي عبر أنفاق ودهاليز لا نهاية لها .. رفعت إحدى يدي .. وضعت راحتي على حبيبتى .. أنزلتها باتجاه حبيبتى، تردّدت .. هيأتُ شجاعتي لتلقى الأمر بأريحية تامة رغم أنهم أرادوا أن يصدموني بها، قالوا بوقاحة تامة: فقدت بصرك وستقطع رجلك! كنت أريد أن أتأكد بأطراف يدي .. بعد تردّد طويل هبطت يدي باتجاه تلك الأنوار .. وجدتها صحراء قاحلة بلا عيون .. أين ذهب الماء؟! من رَدَمَ عيونها وقتل الحياة فيها؟! حاولوا مساومتي على إحدى عينيّ التي لم تغادر مكانها .. علاج هذه العين مقابل الاعتراف؟! السجن وانطفاء العين أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه .. كم تمنيت الشهادة في تلك اللحظات .. كانت رוחي ترفرف بعيداً عن عالم الجسد والمادة .

لاحظت جدّة أسماء جبين ولدها الذي تصيب عرقاً .. ضغطت على يد حفيدتها، أرادت إنقاذ الموقف .. همست:

- إحكي له عن علاماتك في المدرسة؟ ردّت بسرعة .
- بس أخلّص من الرحلة ..؟! قل لي عمي .. عندما تخرج من السجن
أريدُ منك أن تأخذني رحلة كل يوم جمعة! - إن شاء الله .. سأخذك
إلى حديقة الحيوانات .

- هل تنتظريني حتى أخرج من السجن؟!
- سأنتظرك وسأذهب معك إلى أمريكا حيث كان أبي، هزّت جديّها
رأسها .. نزلت دمعتها وهي تمسّد على رأس حفيدتها أرادت أن
تفصح عن أحزانها فلم تستطع لوجود حفيدتها .. وزّعت أحزانها بين
والد هذه الحفيدة التي لاقته منيته في غربته الطويلة .. ووضعت ما تبقى
من ثقل أحزانها هنا على أعتاب هذا السجن البليد .. تذكرُ عندما
جاءوا بها مع والده للاطمئنان عليه في المستشفى بعد إصابته مباشرة ..
غطّى وجهه بقطعة قماش .. كان غارقاً في دمائه .. أخفى فقدان
بصره .. قال لهم إنهم منعوه من كشف وجهه .. اكتفوا برؤية
الإصابات الظاهرة واللفافات البيضاء التي كانت تغطي يديه وساقيه
ورأسه .. سمعوا صوته وسمع صوت بكائهم .. سحّبهم من عنده
وبقي شبح أمّه يلازمه في أعماقه .. أبيضّت عيونهم من الحزن بعد أن
تأكّدوا من فقدان بصره ..

وتذكروا عندما خرج لهم من حبسته الأولى في تبادل الأسرى
سنة ١٩٨٥م ثم عاد ليحمل الحكم المؤبد من جديد بعد فترة وجيزة ..
يفقد البصر وتبقى البصيرة المقاومة التي تفعل فعلها في هذه النفس
الأيّية، فترفض الانصياع لمراسيم الاحتلال البغيض .. تواصل مع
النضال، تواصل الروح مع الجسد .. لم يُفَتَّ من عضده فقدانُ
بصره.. بل رفع من درجات التحدي أضعافاً مضاعفة . أصبحت
تداعيات التراجع والفتور عن أداء واجب المقاومة تبدو إليه ممكنة في
حالة واحد فقط .. حالة زوال الظلام الذي يغرق فيه، أو زوال
الاحتلال الذي أغرق البلاد والعباد في ظلامه .. هو هكذا عنيد لا يلين
ولا ينثني أمام العواصف مهما بلغت من هيجانها .

أوشكت الزيارة على الانتهاء .. رفضوا مراراً إعطاءه زيارة
بلا شيك يلامس فيها بعيون راحته أهذاب "أسماء" أو راحة أمه، أسماء
تحدثت وتحدثت وعمّها يصارع أمواج ذكرياته .. موج فوق موج
يلتحفها ويتدثر بمديرها الجارف .. تتغلب أيامه العجاف على أيامه
السّمان .. قدّم لها وصايا المعهودة .. المدرسة .. جدتك .. وجدك ..
أرسل معها تحياته وسلاماته، انسحب مهدوء بعد أن قبّل أصابع أمه ..
وحاول أن يرمي بقبلة حارة إلى حبيبته الصغيرة قبّل الحديد علّه يوصل
إليها حنينه بأمانة لم يعهد لها فيه من قبل .

انتهى حظّه من عالمه الخارجي .. عاد إلى السجن والسجان،
يبحر ذيول العشرين عاماً .. مضت بمراراتها القائمة في ثنايا الموت
البطيء يجدد صلته بالحياة والعالم الخارجي لحظات الزيارة ثم يعود إلى
أحشاء مأساته .. يُشوى في بطن الحوت الذي ييلع ولا يشبع .. يقاوم
عصارتة التنتنة بكلّ ضراوة ويضيء شمعة في ظلماته الثلاثة إضافة إلى
ظلمة رابعة كانت من نصيبه وحده .

اجتاز الأبواب الثلاثة .. وقف في الساحة على ضفّة التيار البشري
الذي يدور دورته .. جاءه "أيمن" مع صديق آخر .. وضعوا أيديهم
بيديه والتحموا بالركب الدائر، كان كمن يعود من فلك الخارج إلى
فلك الداخل كانت ظلمة أضاءت له حبيبته الصغيرة .. هذا
ظلام حالك .. جعل يمشي ويترنّم بوقع خطواته على أنغام صوت
"أسماء" الذي ما زال يتردّد في جنبات صدره ..

- كيف الزيارة "أبو كمال"؟

- الحمد لله .

كانت زيارة نوعية .. رحت فيها بعيداً .. رحت إلى طبريا
وأبعد من ذلك بكثير .

ثم شرع يطوف بهم في عالم الزيارة الفسيح .

ربحي هرشة: "أمام الضمير المفقود"

ربطوا يده بيدي ورجله برجلي .. أنزلونا إلى المحكمة المركزية في بئر السبع .. كانت هذه المحكمة للإستئناف على حكم اللجنة التي حرمتنا من الإفراج بعد انقضاء ثلثي فترة محبوسيتنا .. كان "أبو همام" شاحباً، هزيلاً، يجر نفسه كأنه شيخ قد أكل منه الدهر وشرب .. كان في بداية العقد الرابع رغم أنه بدا وكأنه في العقد السابع أو الثامن .. لم يكن إصفرار وجهه وذهول عينيه خوفاً من عواقب المحكمة .. جبهته الداخلية متماسكة، تقاتل بصلاية وبعزيمة لا تلين .. يقينه، بحكمة الله ولطفه في قضائه، راسخ .. يمشي على وقع السلاسل بتؤدة ووقار .. يقطع المسافات من النظارة إلى قاعة المحكمة بخطوات قصيرة، يزنها ميزاناً دقيقاً كالنجم الذي يقطع مراحل بصمت .. قطع هذه الرحلة كما كان يقطع في الحبسة .. يوماً وراء يوم وشهراً وراء شهر ... كانت ضععة جسمه وكان تخاور قواه بعد أن سكنته الآلام .. في سنته الثامنة للحبسة اجتاحت جسمه رياح المرض العاتية ..

ومنذ ذلك الحين وهو يصارع ويكابد، الفحص تلو الآخر والعلاج تلو العلاج والحال على ما هو، لم يطرأ أي تحسن يُذكر، وإنما التراجع والتدهور السريع .. سنتان وهو يُقيء ما في بطنه .. معدته لا تحتل الطعام .. عاد إلى طفولته الأولى .. حليب لا يكاد يسيغه .. أي إضافة أخرى تعرّضه للقيء والعذاب الشديد .. يحضّر لإخوانه المرضى الطعام ويتفنن في إتقان صنعه .. يضعه بين أيديهم ثم ينسحب بهدوء .. أي لقمة تدفعه للقيء وأن تقلب معدته رأساً على عقب ..

احتل مكاناً دائماً في مستشفى الرملة على أمل تحسين الحال، ولما وجد حالته تزداد سوءاً قرّر متابعة هذه المحكمة .. سألته عن توقّعاته .. توقف قليلاً، نظر إلى الشرطة الذين يحيطوننا بأسلحتهم الرشاشة وقال: أنا لا أتوقع من محاكمهم خيراً .. أما حسب المنطق والقانون فإن حجتي قوية .. لا يوجد أي مبرر لإستمرار إعتقالي .. في الأصل كان حكمي جائراً .. لا تستحق قضيتي حكم أشهر .. حشرونا على ذمة قضية لا ناقة لنا فيها ولا بغير .. كان اعتقالي في البداية في سجن "مجدو" حيث كان من المتوقع لحبسي أن لا تستمر أكثر من عدة شهور .. ألحقونا ظلماً وزوراً بمجموعة ذات أحكام عالية .. حملت الحكم المؤبد ثم بعد مسيرة طويلة مضيئة في البوسطات

والمحاكم، تم تخفيض الحكم إلى اثنتي عشرة سنة، محاكم قراقوش يتراوح الحكم فيها من البراءة إلى المؤبد .. ماذا نتوقع منهم اليوم؟!

دخلنا قاعة المحكمة .. جلس في صدرها ثلاثة قضاة يترقبون فريستهم بعيون جارحة .. جلسنا في مقدمة الصفوف الخاوية .. محكمة بدون جمهور .. كانت المحامية تقلّب أوراق ملفاتنا .. وقف المدعي العام يترنم بكلماته المنكرة: كل التقارير التي لديّ تشير بأن المدعو يمارس نشاطات قيادية داخل السجن .. المخبرات ومصلحة السجون تقول بأن الإفراج عنه يشكل خطراً خارج السجن .. لذلك فإني أطلب من حضرات القضاة إبقاءه في السجن بقية حكمه كاملة .. ووقفت المحامية تناشد الضمير الإنساني المفقود:

- إن موكلّي لا يمارس أي نشاط محظور .. لا يوجد في ملفه أي مخالفة .. إدعاء المخبرات وإدارة السجن لا يوجد عليه أي دليل، إني أطلبهم بالدليل .. (عوى المدعي العام .. بين أيدي القضاة تقرير سرّي) ..

هز القضاة رؤوسهم .. تراجعت المحامية في حدّة كلامها، خفّضت من ضرباتها وقالت بهدوء:

- حضرات القضاة .. إن موكلّي في حالة صحّة خطيرة .. لدي التقارير الطبية والإثباتات الكافية .. هذا تقرير من مستشفى الرمل ..

هذا تقرير من عيادة السجن .. إنه يعاني من إنسداد في فم المعدة لا تستقبل الطعام .. في التقرير يحتاج إلى عملية نفخ للمريء، وفي حالة بروز أي خلل يجب شق الصدر بعملية جراحية نسبة نجاحها لا تزيد عن خمسة بالمئة .. أصابه الهزال والضعف الشديد كما ترون .. كان وزنه يقارب التسعين، والآن لا يصل إلى الستين .. وضعه الصحي يتدهور يوماً بعد يوم .. العلاج كما تعلمون لم يجد معه نفعاً .. أطلب لموكلي الإفراج الفوري حتى يستطيع متابعة العلاج خارج السجن .. داخل السجن حالته لا تبشر بخير .. لا داعي مطلقاً لإستمرار اعتقاله.. أمضى عشر سنوات على ذمة قضية بسيطة لا يستحق عليها هذا الحكم .. آن الأوان أن يُعيد حضرات القضاة للعدالة مجراها .. إني أناشد عدالتكم وإنسانيتم أن تنظروا لهذا الأسير الذي عانى من الظلم الطويل وهو الآن يعاني من قسوة المرض والآلام المبرحة .. ويشاركني في هذه المناشدة مؤسسات قانونية تتابع حقوق الإنسان الفلسطيني .. لقد ملأت مناشداتهما صفحات الجرائد .. وضع هذا الأسير يقلق الرأي العام الفلسطيني، وفي هذه المرحلة نحن بأشد الحاجة لتدعيم مسيرة السلام .. أطلب أن تصدروا أوامركم بالإفراج عنه فوراً .

مالت رؤوس القضاة على بعضها البعض .. تناجوا بالإثم والعدوان .. ضربوا بعرض الحائط كل الأبعاد الإنسانية .. تلا

أوسطهم القرار من بين أسنانه المتناثرة .. تحركت صلته القاحلة تُعلن
شجّها وتتضامن مع ما يخرج من أسفلها من كلمات جوفاء .. إن
مرضه لا يشكل خطراً على حياته .. عليه أن يكمل حكمه كاملاً ..
إن الأبعاد الإنسانية في الملف لا تعفي المتهم من تبعات المخالفات
القانونية التي قام بها ..

هتفت المحامية ..

- ألا تكفيه العشر سنوات؟ ..

أردف القاضي بوجه متجهّم وكأنه نذير حرب ..

- الملف الثاني ..

أطرقت رأسي .. قرأت نتيجة قرارهم سلفاً .. سمعت "أبو همام"
يتمتم ..

- حسبنا الله ونعم الوكيل ..

(أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يُوتون الناس نقيراً)

صدق الله العظيم

جلال رمّانة: "من أصحاب الأخدود"

وصلت كتلة لحمية مشويّة إلى مستشفى الرملة .. منذ سنين طويلة والمرضى القابعون هناك لم تر أعينهم لحماً مشوياً .. كانوا في حالة شوق شديد لطعام الشواء .. ارتدّت إليهم أبصارهم وغرقوا في دهشة عظيمة، عميقة ومذهلة زاغت فيها الأبصار .. كانت هذه الكتلة المشويّة تأخذ شكل إنسان .. كانت كتمثال الجبص قد المصنوع بإهمال .. تعرّجت التواءات اللحمية بشكل بارز ومخيف .. غادرت أحاديدها، عُقدت حواجب غضبها، أخرجت ماءها وصديدها، اختلط جلدها بلحمها، وكشفت السّتر الذي خفي فيها .

كان رأس في هذه الكتلة .. رأس وضع على صدر المنسّف حتى يظهر كرم الضيافة .. قرضوا من أذنه اليسرى .. كانوا كأفهم قد غفلوا عن جنبه الأيسر فالتهمته النيران .. كان كائهُ أُلقي في نار النمرود فلم تكن عليه برداً وسلاماً .. بل كانت ناراً وجحيماً .. أكلته من كلّ جانب .. كأرض أصابها حسيانٌ من السماء فأصبحت

صعيداً زلقاً .. هكذا عاين المرضى ضيفهم عند نزوله منزلهم .. كانوا بأشدّ الحاجة إلى أن يُطعم المستشفى بالعناصر الشابة القويّة كي تعين الحالات الصعبة على مرضها .. تخدمها وترفع معنوياتها، إلا أن هذا الجثمان يحتاج إلى طاقم كامل للقيام على خدمته .. إنهم شديداً الرغبة للقيام بهذه المهمة إلا أن "العين بصيرة واليد قصيرة" .. مع هذا فقد احتاحتهم رياح التصميم لعمل المستحيل .

لم يتصوّر "أبو حسن" بأن هذا الجسم المسجّى في غرفته هو لجلال رمانة .. ذلك الشاب الذي تابع أخباره قبل عدة شهور .. قالوا في الأخبار بأن سيارة كانت قد أُعدّت للتفجير قد احترقت بسائقها في القدس .. ها هو بين يديه يتلظى في جحيم آلامه .. تصوّر الحريق لم ينطفئ من يومها .. ما زال يصبّ بشواظه في أعماق هذا الرجل .. غامت عيون "أبو الحسن" .. سالت دموعه .. هانت عليه آلامه وأمراضه القاسية أمام هذا الجسد المحترق .. رmqه "جلال" بعيونه التي يشعّ منها الصبر والتسليم لأمر الله .. "هتف به بصوت مخنوق":

- فصبر جميل والله المستعان .. يا شيخ

حملوه مع آلامه حتى سجّوه على سرير كان فاغراً فاهً ويقف محتفّزاً في انتظاره .. التّفّوا حوله .. سمعوا صوته الذي كان يخرج من أعماق بئر لجّي .. أرهفوا له آذانهم .. إن كومة اللّحم هذه تستكلم!!

العيون تلمع في محاجرهما، تدور عليهم وترسل إليهم رسائل شوق ومحبة.. عرفوه على أنفسهم مسرعين .. كانوا يريدون سر شخصية هذا الرجل الفريد .. ما الذي جرى له؟! لماذا احترقت به السيارة بالضبط؟! أين الخلل؟! أخذوا حوله مواقعهم وعلامات الاستفهام ترسم في عقولهم وقلوبهم .. قرأها بسهولة .. تعالى على نيرانه التي تضرب بسياطها جسده المهترئ .. قال له "أبو حسن" بشفقة أم على ولدها:

- ما رأيك أن تنام الآن وترتاح من عناء السفر .
"أجاب مسرعاً":

- أتى لي النوم .. هل توفر لي آلامي هدوءاً للنوم، إنها آلام مشاغبة لا ترحم .. لا تنام ولا تنيم ..
"أبو همام" و "أبو ياسر" لاذا في صمت مخيف .. اقشعرت أبداهما لحظة وصوله .. ما زالت ترتجف قلوبهما .. تتعاقب صور النار ذات الوقود.. الجسد الذي غرق في لهيبها .. الآلام التي تقبض على زمام روحه، عقدت تشوهات هذا الجسد ألسنتهم وباتت أعينهم تدور كالذي يغشى عليه من الموت ..
خرج "أبو حسن" عن جبهة الصمت .. لم يتمالك أعصابه.. عبر بلسانه وقال:

- هل عاجلوك؟! ماذا فعلوا معك بعد إنقاذك من الحريق؟ تراهم قد
تفّنّوا في تعذيبك!!

رفع "جلال" رأسه قليلاً .. أشار إليهم بوضع وسادة يسند بها
رأسه .. ابتسم ابتسامة الضاحك الباكي .. لم تفهم ابتسامته إلا من
بريق عينيه .. بدأت كلماته تخرج ببطء شديد .. كانت كأنها تدفع
على ميدان الموت وهي مكرهة ..

هذه قصة طويلة .. بدأت عندما وقفت بسيارتي في شارع
يافا في القدس .. وجدت نفسي في خضم نيران عاتية تحيطني من كل
جانب .. دخلت عالم الموت .. غبت عن وعيي .. غرقت في غيبوبة
يوماً أو بعض يوم كمقولة أصحاب الكهف .. لا أدري كم كانت ..
فجأة شعرت بأني في عالم أستطيع التواصل مع مفرداته .. حاولت فك
رموزها .. وقع الخوف في قلبي .. هل أفتح عيني؟ هل أنا في حياة
البرزخ؟ .. (القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار) ..
النار ما زالت تتميز من الغيظ وترميني بقضّ الآلام وقضيضها .. إذن
قد أكون في حفرة من حفر النار، لطفك يا رب .. قد أفتح عيني
فأجد أمامي منكر ونكير أو الشجاع الأقوع، قد أجد جنة ربي ولكن
الجنة لا يوجد فيها آلام .. بعد تردد طويل، تماكنت نفسي، شددت
على أعصابي وتوكلت على ربي .. فتحت عيني فإذا بممرضة تقف إلى

جوارى وترقبني من كل جانب .. عرفت أني في مستشفى وأني ما زلت في هذه الدنيا .. أيقنت بأني بسبعة أرواح كالقطط .. خيل إليّ بأن هذه الممرضة يابانية .. سألتها فضحكت .. نقلوني إلى الطابق السادس حيث العلاج المكثف .. وصلني محقق المخابرات ليعالجني من خلال خبراته الأمنية .. وللحق أقول أنه كان لطيفاً أو مثلاً عليّ ذلك بادئ الأمر .. كان يطعمني ويسقيني .. كانت يداي معصوبتين فكانتا يدها عيوناً لي .. كانت له حاجة يريد الوصول إليها بأقصر الطرق .. قال لي:

- أنت متهم بمحاولة تفجير سيارة مفخخة في سوق "محي يهودا" .. رددت له اتهامه في نحره .. قلت له:

- لماذا فجّرتم بي سيارتي؟! ماذا تريدون مني؟!!

تحوّل الحمل الوديع .. رجل الخير والإحسان، ملاك الرحمة، إلى ضبع جائع ينشب أنيابه في فريسته .. تحول بسرعة إلى شيطان مرید .. أيعذبني لأخذ الاعتراف الذي يريد .. الجسد يتعذّب ولا يتسع لأية إضافة في العذاب .. ومع هذا حاول هوايته اللعينة .. ضغط بالوسادة على وجهي .. غابت عني أنفاسي .. أحداث انفجارات دوت في أعماقي .. كبّتها ولم أخفّف عنه غيظه بأية آفة .. تعمّلتُ بفضل ربي على هذا القزم المتزوّج من كل صفة إنسانية .. ذرع الغرفة

والغضب يتأرجح به .. ضرب كفاً بكف .. أغلق النافذة وفتح
المكيّف على الهواء الساخن .. كان يتحرّك بعصبية وجنون .. لم
يستوعب أن يرى إنساناً محروقاً من رأسه حتى أخمص قدميه يحافظ
على مقاومة تردّ كيده في نحره، كنّا في شهر آب اللّهّاب .. اجتاحتني
سحب الهواء الساخن من المكيّف الملعون .. صعدت من درجة
إحتراقي .. كانت درجة ثالثة فأصبحت أرى ألها رابعة أو خامسة على
إيقاعات التيارات الحارّة .. الممرضات يضعن الثلج تحت إبطي
ويسكين الماء البارد على صدري .. يناشدون درجة حرارتي التي بلغت
اثنتين وأربعين أن تنزل قليلاً .. هذا "المحترم" لا يلقي بالاً إلّا إلى
الاعتراف وتلبّيس ما يريد من أوهامه الباطلة .. كنتُ أشعر وكأن
سقف مجمعي قد غادر رأسي .. دماغي تتشظى في كل الاتجاهات،
كنت كمن يهوى في واد سحيق فيتقطع إرباً وتأكّل الطير من رأسه.
وهذا الغي يسأل أسئلته الحمقاء .. كانت الحرارة تشتدّ عليّ فأهذي
بما هبّ ودبّ .. أعود إلى المخيم .. حياة الطفولة التي لم يكن فيها
طفولة .. السعي وراء الرزق والتردّد بين المدرسة وسوق الخضار ..
أزقة المخيم التي لا ترحم وصفعات الاحتلال التي تطال كرامتنا
وتزاحمنا في أدنى حقوقنا الإنسانية .. تجرّدنا من كل شيء وتسلب منا

أملأكننا، ديارنا، إرادتنا وأرواحنا .. لا تريدنا إلا جسداً خاوياً تفرّغ
به لعنايتها وأحقادها ..

أنصت الجميع كأن على رؤوسهم الطير .. أنصت "أبو
حسن" كتلميذ نجيب .. عقد لسانه وخاف من أن تُظهر كلماته
دموع عينيه وأحزان صدره .. شعر "جلال" بأن القوم يريدونه متابعة
قصته كاملة .. حار في أمره .. خائنه لغته محدودة المعاني والكلمات ..
أتى له أن يصيب حقيقة آلامه .. "الذي يأكل العصي ليس كالذي
يعدها" .. تابع يقصّ عليهم نبأه الأليم.

زارتني المحامية "ليثا تسيمل" .. كنت في حالة هذيان، لم أركّز
معهها في إجاباتي .. طالبت لي من المحكمة بطبيب نفسي .. حضر
الطبيب .. كان دُباً ماكراً .. كتب تقريره وانصرف .. فيما بعد
استغلّت محكمة اللد العسكرية هذا التقرير ضديّ .. كم كنت في ذاك
الوقت العصيب بحاجة إلى من يقف معي .. تزورني في خيالي صور
أمي وإخواني .. أستبشر وأتفاعل وأتحرّ .. كانت كلمات المواساة في
حينها تعدل الدنيا وما فيها .. رغم أن ذكر الله كان زادي .. وعون
الله لم يغب عني لحظة واحدة .. إلا أن كلمة مواساة لها معناها ووقعها
في النفس .. قالت لي فتاة عربية اجتازت الحصار المفروض عليّ ..
"يروح الشر عنك يا حوي" .. ترنّمت روعي على أنغام هذه الكلمة

الساعات الطوال .. كم كانت جميلة كلمة "ياخوي" .. حشدت خلفها كل أهلي وربعي وإخواني .. أثلجت صدري بارك الله فيها. نقلوني إلى غرفة العمليات تحت الحراسة المسلحة .. دخل معي شرطي بلباس ممرض .. أمره الطبيب بفك قيودي من السرير .. أخبرني الطبيب بقرار بتر أصابع يدي اليمنى .. طلب موافقتي .. لم يكن أمامي خيار آخر وافقت واحتسبتها عند الله علّها تسبقني إلى الجنة .. خدروني ورحت في عالم الغيب .. أفقت من ضربات البنج فوجدت اللفافات البيضاء قد ملأت جسمي .. يداي ورجلاي .. بطني وظهري .. سلخوا قطع كبيرة من جلد الفخذ والبطن وزرعوها في يدي اليمنى والكتف والخاصرة، كانت عملية زراعة عشوائية قد طالت مناطق شاسعة من جلدي علمت - فيما بعد - أنهم بعدما عجزوا عن الوصول إلى مآرهم التفوا على أقرب المقربين إلى .. أختي وزوجتي .. اعتقلوهم ثم أفرجوا عنهم.. لم يأخذوا منهم حقاً ولا باطلاً.

زارني طبيب إيرلندي تابع للصليب الأحمر .. احتجّ بشدة على القيود التي ربطت رجلاي بالسرير كعادتهم دائماً .. واجهوه بذرائعهم المعهودة .. الأمن، الحرب .. يا جماعة هذا لا يستطيع الوقوف .. ولا حتى الزحف .. كيف سيهرب؟

ضربوا بكلامه عرض الحائط .. أعطاني بطاقته للاتصال به
وقت الحاجة .. صادرها المحقق فوراً بعد أن احتفى الطبيب عن
الأنظار.

أما عن آلامي التي أسأل الله أن لا يذيقها لمسلم فقد كان
أشدّها عندما دخلت عليّ أربع ممرضات .. أخبروني بأني سوف أنقل
إلى هنا (مستشفى الرملة) .. بدأوا بتزع اللفافات البيضاء .. كانت قد
تصلّبت بعد أن امتصت الدم من لحمي ..

سلخوها عن جلدي المسلوخ .. سحبوها وسحبوا معها
روحي رغم جلدي ومحاولاتي الشديدة كظم ألمي إلا أني ملأت
المستشفى صراخاً .. سخرت مني شرطية حاولت تقليد صراحي
والرقص على جراحي .. رأيت قوله تعالى: "فاليوم الذين آمنوا من
الكفار يضحكون" .. أضاءت لي هذه الآية ظلماتهم التي أحاطوني
بها .. أصدقكم القول أني شعرت بالموت عدّة مرّات .. نازعت روحي
أشلاء جسدي ولكنّ أجل الله لم يأت بعد .. "قتل أصحاب الأخدود،
النار ذات الوقود".

كبّلوني بأصفادهم .. حملوني في سيارة إسعاف ثم هبطوا بي
إلى هنا .. تشاهدت عدّة مرّات، كانت تتلوى روحي في جسدي
كلما ضربت عجلات سيارتهم مطبّاً .. أو دعست قدم السائق على

الفرامل .. الحمد لله أن استقرّ بي المقام عند إخواني .. ما أسوأ غربة المريض .. أشعر الآن أني بين أهلي وأحبابي .. هتف أبو حسن بكلمات خرجت من ينابيع المودّة والرحمة التي تملأ صدره.

- الحمد لله على سلامتك .. ولا يهملك، نحن أهلك وإخوانك وأحبابك .. لا تحمل همّ .. المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ..

- الحمد لله لا يقلقني الآن سوى شيء واحد .. كيف سأتكلم مع أهلي؟ .. كيف سينظر إليّ أولادي وأنا هكذا؟ .. عليّ أن أنقل نفسياتهم إلى ما يجعلهم يستوعبون الذي جرى لي . "هتف أبو حسن مطمئناً": الصبر واحتساب الأجر عند أرحم الراحمين .. أردف جلال ميتسماً: إني بفضل الله عليّ أملك روحاً مريحة سأغدق عليهم من خيرات روعي بما يعوّض عليهم تشوّهات جسدي!! تردّدت الدعوات في الصدور .. قواك الله .. ثبتك الله .. شفاك الله .. صبرك الله ..

١٩٩٩/٦/٤

وليد الهودلي: "قراصنة الجبّانة"

ليس غريباً أن يمارس السجّان القمع، أما أن يمارسه الطبيب أو الممرّض!! أن تقوم ملائكة الرحمة، كما يسمونها، بدور ملائكة العذاب!! لم أسمع بمثل هذا إلاّ في أقبية التحقيق وما رأيته بأمّ عيني في جبّانة الرملّة التي تحمل مجازاً اسم مستشفى.

كان كايد "الحفيش الدرزي" ممرّضاً على رأس عمله من شاكلته، تستطيع أن تقول عنهم بأنهم شرطة .. سجانين .. أمن .. منتفعين .. متربصين .. قد تحسن الظن وتقول موظّفين، أما أن تقول عنهم ممرضين فهم أبعد ما يكون عن هذا الوصف! رغم أنهم يلبسون "البياض" ويسلمون الدواء ويقيسون الضغط والحرارة .. يجاملون ويبتسمون وفي نفس الوقت تدور أعينهم على كل صغيرة وكبيرة .. يتجسسون بكل حواسهم، يرأفون على أسيادهم كما يرأفون على أولادهم .. يقدمون بين يدي مولاهم ضابط الأمن أسمى آيات الولاء والخدمة ويتزلّقون له تماماً كالخاتم في الإصبع .. ألغوا أنفسهم فتحولوا

إلى أدوات طيعة لا تعرف إلا الاستجابة للأوامر والسير على صراط تعليماته الصارمة .. كان الشباب يسمون "كايد" بالسَّلَق لتطابقه مع وظيفة الكلب السَّلَق .

ألقى "السَّلَق" القبض على رسالة كانت في جيب أحد الأسرى المغادرين .. قرأها بإمعان .. وجد فيها ضربة لمولاه .. حللها بحاسة شمه الخبيثة كما تتشمم الكلاب المدربة .. "إنها قصة الحمام والصيد .. ماذا يقصد بالحمام ومن هو الصيد؟ أنهم السجناء والسجان .. تروي القصة عن الحمامة الهزيلة التي استطاعت الخلاص من الشبكة التي ضُربت عليها وعلى زميلاتها .. إذن فهو يرمز إلى عملية هرب من السجن .. إنها فرصتي في الكشف عن هذه النوايا قبل استفحال الأمر .. سأظهر براعتي الأمنية .. سأشرح كل تحليلاتي الدقيقة عن هذه القصة الملعونة .."

استلم ضابط الأمن الرسالة مع تحليلاتها العمياء .. أصدر أوامره "للسَّلَق" بأن يكتف عيون المراقبة على المرضى المحتجزين فيما يسمى بالمستشفى: "خذوا انتباهكم من كل من يكتب أو يقرأ .. يرقد في هذه الجبانة عشرون مريضاً .. ثمانية ثابتون والباقي يأتونه ويغادرون .. يأتي المريض من سجنه فيجري له الفحص المطلوب أو

المعاينة من قبل الطبيب المختصّ ثم تنتهي ضيافته ويرحل على وجه السرعة.

هذه النقطة التي يلتقي بها المرضى من كلّ السجون لا بد من مراقبتها أمنياً وتشديد الخناق عليها .. ويجب أن يكون المريض مسكيناً لاجئاً إلى هذا المستشفى مجرداً من كل شيء سوى مرضه .. هذه هي القاعدة التي ينطلق منها أمنهم .

يستفتح المريض منذ دخوله بمقابلة مع ضابط الأمن .. ويتبارد عليه بأسئلة تشبه وجهه البارد .. ولد مائع .. يتحفز خلف مكتبه كطالب مدرسة متذاكي على أقرانه .. يتسم ابتسامة صفراء يظهر في ثناياها المكر اللثيم والخبث الدفين .. يذكر الناظر إليه بالقصيدة المدرسية "برز الثعلب يوماً في ثياب الواعظين" .. يسأل: عندك مشاكل؟! ألك مطالب؟ أسئلة روتينية تظهر من خلالها الرسالة بوضوح .. نحن لك بالمرصاد حتى ولو كنت في فراش المرض!!

قصّ "السّلق" أثر رسالة الحمام والصيد .. عرف من كتبها بسهولة لأنّ المسألة لم تكن في الخفاء .. كتبها في العلن، وقرأها على زملائي في الغرفة، ثم بعثتها برسالة مكشوفة .. لم تكن سرّاً فوصل إلى مصدرها بسهولة .. وجّه عيون الرصد عليّ .. وضعني تحت عدسة المجهر .. لاحظ أنّ جُلّ وقتي في القراءة والكتابة .. ظاهرة غريبة في

المستشفى .. المرضى مُستغرقون في بحر آلام .. بعضهم يهرب منها إلى التلفاز والبعض الآخر إلى التفاعل الاجتماعي .. الوداع والاستقبال وتقصّي أخبار الأصدقاء المنتشرين في كافّة السجون .. أما أن تجد من يقرأ أو يكتب فلا يكون هذا إلا نادراً وفي أوقات قصيرة .. وضع "السّلق" نصب عينيه عدة تساؤلات .. "ما هذا الإنسان الذي يقرأ بنهم .. يكتب دون توقف .. كأنه مولد كهربائي .. يحشون رأسه الكثير من الكتب ... يحشو رأسه الكثير من الكتب ... " أذكر أنّي قرأت كتاباً بعد أن طردت من المدرسة .. ما هو سر هذا الرجل؟ حاسني السادسة تقول لي بأن هناك ترقية من ورائه .. سأدعه يكتب على راحته .. وسأنقضّ عليه في الوقت المناسب .. أحمل على كتفي نجمتين، كم من الناس أوقعت في شباكي .. ذاك الشاب الذي طفق يكتب "ويكسل" وقتما وصل إلى هنا .. في الصباح وضعت يدي على جيب بنطاله المعلق خلصة وهو نائم .. سحبتها كما تسحب الشعرة من العجين، رسائل ما هبّ ودبّ، خلال دقائق كانت بين أيدي الضابط .. "برافو، إطلع درجة" .. درجة تلو الدرجة على أكتاف هؤلاء المخربّين .. هيه .. هذه هي الحياة كل شاطر وشطارته".

كنت ناظراً للظلام الذي يلف الغرفة ألتجئ إلى حوار الباب.. كان ضوء الممر الخارجي يتسلل من شبك الباب .. أفتح كتابي وأقرأ أو أكتب أو أصلي .. ذات مرة وجدت خيلاً يتحرك على صفحة كتابي .. رفعت رأسي وإذا "بالسَّلَق" يرقب ما أقرأ .. ابتسمت.. بادلني ابتسامتي بابتسامة زرقاء كالحة .. خاطبني بلسانه .. حَمَل .. يحمل قلب ذئب .. هذا الضوء يتعب عينيك!! رَّيح نفسك والصبح رباح .. هززت رأسي ولم أجب .. يُتابع .. ماذا تقرأ؟! "أجبت باقتضاب حتى يفهم استيائي .. رواية .. أتحب أن تقرأها .. ناولته إياها .. تفاجأ من هذا الردّ .. تصفحها بأطراف أصابعه .. زَم شفتيه .. أعادها مرة أخرى، استرق النظر فرآني غارقاً في الكتابة .. بعد دقيقتين كان ضابط الأمن يقف على الباب فوق رأسي .. رماني بأسئلته الباردة وانسحب مهدوء ..

ضابط الأمن يسأل ممثل المرضى .. لماذا يتناوبون في هذه الغرف على الباب؟ رددت عليه ببساطة .. إنهم يُصلُّون أن يقرأون على ضوء الممر الخارجي . إنتابني شعور بأنهم قد بيتوا أمراً .. كنت أيامها على وشك الانتهاء من هذه المجموعة القصصية .. مجموعة سجلت فيها بعض ما شاهدته من آلام وآهات هؤلاء المعذبين في هذه الجبابة .. محكوم عليهم فيها بالموت مع وقف التنفيذ .. أو موت

بالتقسيط المتعب .. حبذا لو كان موتاً مريحاً على قاعدة " فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة فليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته" ..

اتفقت مع أحد الإخوة بعد انتهائي مباشرة من كتابة القصة الأخيرة على أن ننسخ نسخة ثانية من باب الاحتياط، باشرنا العمل على طاولة في إحدى الغرف هو ينسخ وأنا أوقف .. داهمنا صوت "السَّلق" على حين غفلة .. وكأنه يعوي على فريسته .. "تفتيش .. اتركوا كل شيء في مكانه" .. نظرت إلى الوراء .. وجدته متمرساً بثلة من جنود "البوسطة" المعروفين بشراستهم .. هكذا فجأة ينظر "كايد" الممرض، الحمل الوديع، موزع الرحمة والدواء إلى شرطي شرس يصبُّ جحيم حقه الدّفين على رؤوس ضحايا: المرضى، العاكفون على آلامهم .. لم يكن لي مفرّ حتى أعطي الانطباع بأن ما لديّ في غاية الأهمية .. تركتها ببساطة وخرجت .. كنت حينها أتمزق وكأنك تترع طفلاً من بين يدي أمه .. قلبوا كل شيء . المرضى وأغراضهم .. لم يتركوا شيئاً في مكانه إلا نفلوه وبددوا شمله .. خلطوا الحابل بالنابل .. حشرونا في غرفة الطعام حتى انتهوا من عبثهم .. عاثوا في أمتعة المرضى فساداً .. جلست على أعصابي الدماء تفور فيّ ودم المرضى .. الضغط يرتفع ويشتدّ .. البخاخات تسارع بها الأيدي إلى أفواه الذين يعانون من آلام صدورهم .. الغضب يكتسح

ساحات النفوس، العيون ترقب ساحة الفراغ من هذا التفتيش!! فتشوا أجسادنا بعد الفراغ من أغراضنا تفتيشاً دقيقاً .. بالماكنة الإلكترونية، بأيديهم الشيطانية .. شرّ البليّة ما يضحك .. كانوا يلبسون على أيديهم القفّازات البلاستيكية الطبية .. أيدي إجرامية يخافون عليها من التلوّث؟!!

عدنا إلى ملابسنا المبتوثة نُضمّد جراحها ونلّم شعنها .. أعدنا إليها، ووضعناها في خزائنها .. كانت تشكو بصمت .. وكان المرضى يشتمون ويسبّون، سارعت بدوري إلى دفاتري .. كانت الفاجعة الكبرى بانتظاري .. صادرها القراصنة .. قراصنة الفكر والكلمة .. قراصنة المشاعر .. والأحاسيس، قتلة الأدب والذوق .. قتلة الحب والحياة ..

وقفنا أمام المعادلة المُرّة .. " لا يمكن لشرطة العذاب أن تقوم بالطب والدواء كما لا يمكن للشياطين أن تأخذ دور الملائكة" .. الآن تسأل وتخضع لمحاكم التفتيش .. تحت رحمة من لا يرحم.. تعكرت أجواء نفسي ونفوس المرضى واجتاحنا الهم والغم من كل جانب .. حاولت معها تلطيفاً بالحوقة والاحتساب عند الحسيب والوكيل الذي لا يغفل عما يعمل المجرمون.

باءت كل محاولات إرجاعها بالفشل .. لم تنفع معهم الطرق
الدبلوماسية الهادئة بداية الأمر، ولم تنفع المطالبة شديدة اللهجة
والتهديد باللجوء إلى المحاكم نهاية الأمر ما العمل؟! شحنت همي بعد
أن رجعت إلى سحني وخرجت من برائنهم المسمومة حاولت تجميع
مشاعري التي كانت ملتحمة مع مشاعر المرض .. رفعت شراع قلبي
وبدأت أكتب وأستعيد أفكاري من جديد ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفهرس

٧	 مقدمة
٩	 محمد أبو هدوان: "الشيخ المحتسب"
١٩	 عمر الخطيب: "المشعوذة"
٣٣	 ياسر المؤذن: "واحة الديمقراطية"
٤٩	 جمعة إسماعيل: "صخرة في صدره"
٥٧	 علي شلالدة: "مالها إلا الله"
٦٥	 نضال أبو عليا: "أربع ساعات"
٧٥	 فتحي زقوت: "سائق الحافلة"
٨٧	 علي عباس البياتي: "عراقي في سرداب السبع"
٩٧	 علاء الدين البازيان: "زيارة إلى بحيرة طبريا"
١٠٧	 ربحي هرشة: "أمام الضمير المفقود"
١١٣	 جلال رمانة: "من أصحاب الأحدود"
١٢٣	 وليد الهودي: "فراصنة الجبانة"

صدر عن بيت الشعر في فلسطين

١. محمد حسيب القاضي السدى قطرة قطرة
٢. نضال بركان مصاطب الذاكرة
٣. سلمان ناطور هل قتلتم أحداً هناك
٤. عيسى أبو شمسية، عبد الكريم أبو محاورات عقل (عن عبد اللطيف عقل) خشان، محمود العطشان
٥. غريب عسقلاني جفاف الحلق ومرارة اللسان
٦. سمير شحادة التميمي إلى ولدي مع الاعتذار
٧. جهاد هديب ما يمكن خيانتته ويسمى الألم
٨. مختارات (١٣) شاعر شاب/ة ضيوف النار الدائمون فلسطيني/ة
٩. بكر أبو بكر لم لا
١٠. المتوكل طه أو كما قال (مختارات)
١١. عز الدين المناصرة قصيدة النثر
١٢. المتوكل طه عباءة الورد
١٣. عزت المغراوي جنة مضينة
١٤. المتوكل طه هذا ما لزم - رسائل إبراهيم طوقان إلى فدوى
١٥. سعود الأسدي دعسة بنت النبي
١٦. علي الخليلي خريف الصفات
١٧. محمد حلمي الريشة زفرات الهوامش
١٨. ربحي محمود عودة المسافر
١٩. عثمان حسين له أنت
٢٠. علاء الدين كاتبة أحلام السنونو
٢١. صخر أبو نزار نشيد الذاكرة

٢٢. محمود أبو هشيش	٢٢. وجع الزجاج
٢٣. عبد الله عيسى	٢٣. قيامة الأسوار
٢٤. عادل الأسطة	٢٤. دراسة في جدارية محمود درويش
٢٥. عبد الناصر صالح	٢٥. فاكهة الندم
٢٦. زاهر الجواهر	٢٦. دراسة في شعر المعتقلات
٢٧. وليد الشيخ	٢٧. حيث لا شجر
٢٨. غادة الشافعي	٢٨. المشهد يخبي صهيلاً
٢٩. أمجد ناصر	٢٩. مختارات شعرية
٣٠. يوسف الخمود	٣٠. حجر الوحش
٣١. محمد ضمرة	٣١. القدس أرض السماء
٣٢. سليمان دغش	٣٢. زمان المكان
٣٣. د. حسين البرغوثي	٣٣. ما قالته العجربة
٣٤. د. حسين البرغوثي	٣٤. الضوء الأزرق
٣٥. حسن النواب	٣٥. شريعة النواب
٣٦. خضير ميري	٣٦. صحراء بوذا
٣٧. زهور دكسن	٣٧. الغدير الأخير
٣٨. طالب عبد العزيز	٣٨. ما لا يفضحه السراج
٣٩. عبد الزهرة زكي	٣٩. كتاب اليوم .. كتاب الساحر
٤٠. عبد المطلب محمود	٤٠. بعض ما يمكن أن ..
٤١. منذر عبد الحر	٤١. قرابين العش الذهبي
٤٢. لطيفة الدليمي	٤٢. خسوف برهان الكتي
٤٣. مجموعة شعراء عراقيين	٤٣. انساع القلب
٤٤. عادل عبد الله	٤٤. بمناسبة وجودي حياً
٤٥. أشرف الزغل	٤٥. نوم كما أرى
٤٦. تميم البرغوثي	٤٦. ميجانا
٤٧. بشير شلش	٤٧. سماوات واطنة

طارق الكرمي	٤٨ .
وليد الهودلي	٤٩ .
ضحى الوحيد	
مدفن الأحياء	